(٨٠) سُورَةُ عَبَسَ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ

● **سورة** عبس من السور المكية ، وهي تتناول شئوناً تتعلق بالعقيدة وأمر الرسالة ، كما أنها تتحدث عن دلائل القدرة والوحدانية في خلق الإنسان ، والنبات ، والطعام ، وفيها الحديث عن القيامة وأهوالها ، وشدة ذلك اليوم العصيب .

● **ابتدأت** السورة الكريمة بذكر قصة الأعمى « عبد الله بن أم مكتوم » الذي جاء إلى رسول الله ﷺ يطلب منه أن يعلمه مما علمه الله ، ورسولُ الله ﷺ مشغول مع جماعة من كبراء قريش يدعوهم إلى الإسلام ، وكرر ذلك وهو لا يعلم أنه مشغول بالقوم ، فكره رسول الله ﷺ قطع الأعمى لكلامه ، فعبس وجهه وأعرض عنه ، فنزل القرآن يعاتب الرسول عتاباً شديداً مع توجيهه إلى الطريق الأصوب ﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزَّكَّى . أو يَّذكَّر فتنفعه الذكرى . أما من استغنى فأنت له تَصدَّى .. ﴾ الآيات

● **ثم تحدثت** السورة عن جحود الإنسان ، وكفره الفاحش بربه مع كثرة نعم الله تعالى عليه ﴿ قُتل الإنسان ما أكفره.؟ من أي شيءٍ خلقه ؟ من نطفةٍ خلقه فقدَّره . ثم السبيل يسَّره .. ﴾ الآيات

● **ثم تناولت** السورة دلائل القدرة في هذا الكون ، حيث يسَّر الله للإنسان سُبُل العيش فوق سطح هذه المعمورة ﴿ فلينظر الإنسان

إلى طعامه أنا صببنا الماء صبًّا ثم شققنا الأرضَ شقًّا فأنبتنا فيها حَبًّا وعنباً وقضباً . وزيتوناً ونخلاً . وحدائق غُلباً . وفاكهةً وأبًّا . متاعاً لكم ولأنعامكم﴾

● **وختمت** السورة الكريمة ببيان أهوال القيامة ، وفرار الإنسان من أحبابه من شدة الهول والفزع ، وبينت في ذلك اليوم العصيب حال المؤمنين وحال الكافرين ﴿ فإذا جاءت الصاخة . يوم يفر المرء من أخيه . وأُمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرىء منهم يومئذٍ شأنٌ يغنيه . وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة . ووجوهٌ يومئذٍ عليها غبَرة . ترهقها قترة . أولئك هم الكفرة الفجرة﴾ .

سورة عبس

[١٠٠٣] أخرج الترمذي والحاكم[١] عن عائشة قالت: أنزل: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾[٢] في ابن أم مكتوم الأعمى أتى رسول الله [ﷺ] فجعل يقول: يا رسول الله أرشدني وعند رسول الله [ﷺ] رجل من عظماء المشركين فجعل رسول الله [ﷺ] يعرض عنه ويقبل على الآخر فيقول له: **«أترى بما أقول بأساً»** فيقول لا فنزلت: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾[٣]. وأخرج أبو يعلى مثله عن أنس.

[١٠٠٤] ك.. وأخرج ابن المنذر عن عكرمة في قوله: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧﴾[٤] قال: نزلت في عتبة بن أبي لهب حين قال: كفرت برب النجم.

* * *

[١٠٠٣] (١) رواه الترمذي في سننه (٣٣٣١) والواحدي في أسباب النزول ص (٢٥٢).

(٢) سورة عبس: الآية (١).

(٣) سورة عبس: الآية (١ و٢).

[١٠٠٤] (٤) سورة عبس: الآية (١٧).

سورة عبس

وهي أربعون وآيتان مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: أتى رسولَ الله ﷺ ابن أم مكتوم، وأم مكتوم أم أبيه، واسمه عبدالله بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهري، من بني عامر بن لؤي، وعنده صناديد قريش عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب، وأمية بن خلف، والوليد بن المغيرة، يدعوهم إلى الإسلام؛ رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم، فقال للنبي ﷺ: أقرئني وعلِّمني مما علمك الله!! وكرر ذلك، فكرِه رسول الله ﷺ قطعه لكلامه، وعبس وأعرض عنه فنزلت هذه الآية، وكان رسول الله ﷺ يكرمه ويقول إذا رآه: «مَرْحَبًا بِمَنْ عَاتَبَنِي فِيهِ رَبِّي»[1] ويقول: «هَلْ لَكَ مِنْ حَاجَةٍ؟» واستخلفه على المدينة مرتين **وفي الموضع سؤالات:**

الأول: أن ابن أم مكتوم كان يستحق التأديب والزجر، فكيف عاتب الله رسوله على أن أدب ابن أم مكتوم وزجره؟ وإنما قلنا: إنه كان يستحق التأديب لوجوه:

أحدها: أنه وإن كان لفقد بصره لا يرى القوم، لكنه لصحة سمعه كان يسمع مخاطبة الرسول ﷺ أولئك الكفار، وكان يسمع أصواتهم أيضًا، وكان يعرف بواسطة استماع تلك الكلمات شدة اهتمام النبي ﷺ بشأنهم، فكان إقدامه على قطع كلام النبي ﷺ وإلقاء غرض نفسه في البين قبل تمام غرض - النبي إيذاء للنبي عليه الصلاة والسلام، وذلك معصية عظيمة.

وثانيها: أن الأهم مقدم على المهم، وهو كان قد أسلم وتعلم ما كان يحتاج إليه من أمر الدين، أما أولئك الكفار فما كانوا قد أسلموا، وهو إسلامهم سببًا لإسلام جمع عظيم، فإلقاء ابن أم مكتوم ذلك الكلام في البين كالسبب في قطع ذلك الخير العظيم لغرض قليل، وذلك محرم.

وثالثها: أنه تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤] فنهاهم عن مجرد النداء إلا في الوقت، فههنا هذا النداء الذي صار كالصارف للكفار عن قبول الإيمان وكالقاطع على الرسول أعظم مهماته - أَوْلى أن يكون ذنبًا ومعصية.

فثبت بهذا أن الذي فعله ابن أم مكتوم كان ذنبًا ومعصية، وأن الذي فعله الرسول كان هو

(١) أورده الديلمي في الفردوس رقم (٦٨٠٥) بدون إسناد عن أنس رضي الله عنه.

الواجب، وعند هذا يتوجه السؤال في أنه كيف عاتبه الله تعالى على ذلك الفعل؟!

السؤال الثاني:أنه تعالى لما عاتبه على مجرد أنه عبس في وجهه، كان تعظيمًا عظيمًا من الله سبحانه لابن أم مكتوم، وإذا كان كذلك فكيف يليق بمثل هذا التعظيم أن يذكره باسم الأعمى مع أن ذكر الإنسان بهذا الوصف يقتضي تحقير شأنه جدًّا؟!

السؤال الثالث:الظاهر أنه عليه الصلاة والسلام كان مأذونًا في أن يعامل أصحابه على حسب ما يراه مصلحة، وأنه عليه الصلاة والسلام كثيرًا ما كان يؤدب أصحابه ويزجرهم عن أشياء، وكيف لا يكون كذلك وهو عليه الصلاة والسلام إنما بُعث ليؤدبهم وليعلمهم محاسن الآداب، وإذا كان كذلك كان ذلك التعبيس داخلاً في إذن الله تعالى إياه في تأديب أصحابه، وإذا كان ذلك مأذونًا فيه، فكيف وقعت المعاتبة عليه؟! فهذا جملة ما يتعلق بهذا الموضع من الإشكالات. **والجواب عن السؤال الأول من وجهين الأول:**أن الأمر وإن كان على ما ذكرتم إلا أن ظاهر الواقعة يوهم تقديم الأغنياء على الفقراء وانكسار قلوب الفقراء، فلهذا السبب حصلت المعاتبة، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢] **والوجه الثاني:**لعل هذا العتاب لم يقع على ما صدر من الرسول عليه الصلاة والسلام من الفعل الظاهر، بل على ما كان منه في قلبه، وهو أن قلبه عليه الصلاة والسلام كان قد مال إليهم بسبب قرابتهم وشرفهم وعلو منصبهم، وكان ينفر طبعه عن الأعمى بسبب عماه وعدم قرابته وقلة شرفه، فلما وقع التعبيس والتولي لهذه الداعية وقعت المعاتبة، لا على التأديب بل على التأديب لأجل هذه الداعية.

والجواب عن السؤال الثاني:أن ذكره بلفظ الأعمى ليس لتحقير شأنه، بل كأنه قيل: إنه بسبب عماه استحق مزيد الرفق والرأفة، فكيف يليق بك يا محمد أن تخصه بالغلظة. **والجواب عن السؤال الثالث:**أنه كان مأذونًا في تأديب أصحابه لكن ههنا لما أوهم تقديم الأغنياء على الفقراء، وكان ذلك مما يوهم ترجيح الدنيا على الدين، فلهذا السبب جاءت هذه المعاتبة.

المسألة الثانية: القائلون بصدور الذنب عن الأنبياء عليهم السلام تمسكوا بهذه الآية وقالوا: لما عاتبه الله في ذلك الفعل، دل على أن ذلك الفعل كان معصية. وهذا بعيد فإنا قد بينا أن ذلك كان هو الواجب المتعين لا بحسب هذا الاعتبار الواحد، وهو أنه يوهم تقديم الأغنياء على الفقراء، وذلك غير لائق بصلابة الرسول عليه الصلاة والسلام، وإذا كان كذلك، كان ذلك جاريًا مجرى ترك الاحتياط وترك الأفضل، فلم يكن ذلك ذنبًا ألبتة.

المسألة الثالثة: أجمع المفسرون على أن الذي عبس وتولى هو الرسول عليه الصلاة والسلام، وأجمعوا (على) أن الأعمى هو ابن أم مكتوم، وقرئ: (عبَّس) بالتشديد للمبالغة ونحوه كلَّح في كلح، (أن جاءه) منصوب بتولى أو بعبس على اختلاف المذهبين في إعمال الأقرب أو الأبعد ومعناه عبس لأن جاءه الأعمى، وأعرض لذلك، وقرئ: (أن جاءه) بهمزتين، وبألف بينهما وقف على ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ ثم ابتدأ على معنى ألآن جاءه الأعمى، والمراد منه الإنكار

عليه، واعلم أن في الإخبار عما فرط من رسول الله ثم الإقبال عليه بالخطاب دليل على زيادة الإنكار، كمن يشكو إلى الناس جانيًا جنى عليه، ثم يقبل على الجاني إذا حمي في الشكاية مواجهًا بالتوبيخ وإلزام الحجة.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ ﴾

فيه قولان: الأول: أي شيء يجعلك داريًا بحال هذا الأعمى لعله يتطهر بما يتلقن منك - من الجهل أو الإثم، أو يتعظ فتنفعه ذكراك، أي موعظتك، فتكون له لطفًا في بعض الطاعات، وبالجملة فلعل ذلك العلم الذي يتلقفه عنك يطهره عن بعض ما لا ينبغي، وهو الجهل والمعصية، أو يشغله ببعض ما ينبغي وهو الطاعة. **الثاني:** أن الضمير في (لعله) للكافر، بمعنى أنت طمعت في أن يزكى الكافر بالإسلام أو يذّكر فتقربه الذكرى إلى قبول الحق: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ﴾ أن ما طمعت فيه كائن، وقرئ (فَتَنْفَعُهُ) بالرفع عطفًا على (يذّكر) وبالنصب جوابًا للعل، كقوله: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٣٧] وقد مر.

ثم قال تعالى: ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ قال عطاء: يريد عن الإيمان. وقال الكلبي: استغنى عن الله. وقال بعضهم: استغنى: أثرى. وهو فاسد ههنا؛ لأن إقبال النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن لثروتهم ومالهم حتى يقال له: أما من أثرى، فأنت تُقبل عليه، ولأنه قال: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ [عبس: ٨، ٩] ولم يقل: وهو فقير عديم، ومن قال: (أما من استغنى بماله) فهو صحيح، لأن المعنى أنه استغنى عن الإيمان والقرآن بما له من المال.

وقوله تعالى ﴿ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ قال الزجاج: أي أنت تُقبل عليه وتتعرض له وتميل إليه، يقال: تصدى فلان لفلان، يتصدى، إذا تعرض له، والأصل فيه تصدد يتصدى من الصدد، وهو ما استقبلك وصار قبالتك، وقد ذكرنا مثل هذا في قوله: ﴿إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥] وقرىء: (تصَّدى) بالتشديد بإدغام التاء في الصاد، وقرأ أبو جعفر: (تُصدى)، بضم التاء، أي تعرض، ومعناه يدعوك داع إلى التصدي له من الحرص، والتهالك على إسلامه.

ثم قال تعالى: ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ المعنى لا شيء عليك في أن لا يسلم مَن تدعوه إلى الإسلام، فإنه ليس عليك إلا البلاغ، أي لا يبلغن بك الحرص على إسلامهم إلى أن تُعرض عمن أسلم للاشتغال بدعوتهم.

قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ ﴾

ثم قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾ أن يسرع في طلب الخير، كقوله: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩].

وقوله: ﴿ وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ فيه ثلاثة أوجه: يخشى الله ويخافه في أن لا يهتم بأداء تكاليفه. أو

يخشى الكفار وأذاهم في إتيانك. أو يخشى الكبوة فإنه كان أعمى وما كان له قائد.

[ثم قال]: ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ أي تتشاغل، من لهى عن الشيء والتهى وتلهى، وقرأ طلحة بن مصرف: (تتلهى) وقرأ أبو جعفر ﴿تَلَهَّىٰ﴾ أي يلهيك شأن الصناديد، فإن قيل: قوله: ﴿فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ﴾ . . ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ كان فيه اختصاصًا، قلنا: نعم، ومعناه إنكار التصدي والتلهي عنه، أي مثلك خصوصًا لا ينبغي أن يتصدى للغني، ويتلهى عن الفقير.

ثم قال: ﴿كَلَّآ﴾ وهو ردع عن المعاتب عليه وعن معاودة مثله. قال الحسن: لما تلا جبريل عن النبي ﷺ هذه الآيات عاد وجهه كأنما أسف الرماد فيه ينتظر ماذا يحكم الله عليه، فلما قال: ﴿كَلَّآ﴾ سُري منه، أي لا تفعل مثل ذلك. وقد بينا نحن أن ذلك محمول على ترك الأولى.

ثم قال: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾، **وفيه سؤالان:**

الأول: قوله: ﴿إِنَّهَا﴾ ضمير المؤنث، وقوله: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٢] ضمير المذكر، والضميران عائدان إلى شيء واحد، فكيف القول فيه؟ الجواب: وفيه وجهان: **الأول:** أن قوله: ﴿إِنَّهَا﴾ ضمير المؤنث، قال مقاتل: يعني آيات القرآن. وقال الكلبي: يعني هذه السورة. وهو قول الأخفش، والضمير في قوله: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ عائد إلى التذكرة أيضًا؛ لأن التذكرة في معنى الذكر والوعظ. **الثاني:** قال صاحب (النظم): ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ يعني به القرآن والقرآن مذكر إلا أنه لما جعل القرآن تذكرة أخرجه على لفظ التذكرة، ولو ذكَّره لجاز، كما قال في موضع آخر: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾ [المدثر: ٥٤] والدليل على أن قوله: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ المراد به القرآن قوله: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾.

السؤال الثاني: كيف اتصال هذه الآية بما قبلها؟ الجواب: من وجهين: **الأول:** كأنه قيل: هذا التأديب الذي أوحيته إليك وعرفته لك في إجلال الفقراء وعدم الالتفات إلى أهل الدنيا أُثبت في اللوح المحفوظ الذي قد وُكل بحفظه أكابر الملائكة. **الثاني:** كأنه قيل: هذا القرآن قد بلغ في العظمة إلى هذا الحد العظيم، فأي حاجة به إلى أن يقبله هؤلاء الكفار، فسواء قبلوه أو لم يقبلوه فلا تلتفت إليهم ولا تشغل قلبك بهم، وإياك وأن تُعرض عمن آمن به تطييبًا لقلب أرباب الدنيا.

قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى وصف تلك التذكرة بأمرين: **الأول:** قوله: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي هذه تذكرة بينة ظاهرة بحيث لو أرادوا فهمها والاتعاظ بها والعمل بموجبها لقدروا عليه. **والثاني:** قوله: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ أي تلك التذكرة معدة في هذه الصحف المكرمة، والمراد من ذلك تعظيم حال القرآن والتنويه بذكره، والمعنى أن هذه التذكرة مثبتة في صحف، والمراد من الصحف قولان: **الأول:** أنها صحف منتسخة من اللوح، مكرمة عند الله تعالى، مرفوعة في السماء السابعة. أو

مرفوعة المقدار مطهرة عن أيدي الشياطين، أو المراد مطهرة بسبب أنها لا يمسها إلا المطهرون وهم الملائكة.

ثم قال تعالى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: أن الله تعالى وصف الملائكة بثلاثة أنواع من الصفات: **أولها**: أنهم سفرة وفيه قولان: **الأول**: قال ابن عباس ومجاهد ومقاتل وقتادة: هم الكتبة من الملائكة، قال الزجاج: السفرة: الكتبة، واحدها سافر، مثل كتبة وكاتب، وإنما قيل للكتبة: سفرة وللكاتب سافر، لأن معناه أنه الذي يبين الشيء ويوضحه، يقال: (سفرت المرأة) إذا كشفت عن وجهها. **القول الثاني**: وهو اختيار الفراء أن السفرة ههنا هم الملائكة الذين يسفرون بالوحي بين الله وبين رسله، واحدها سافر، والعرب تقول: (سفرت بين القوم) إذا أصلحت بينهم، فجعلت الملائكة إذا نزلت بوحي الله وتأديته كالسفير الذي يصلح به بين القوم، وأنشدوا:

وَمَا أَدَعُ السِّفَارَةَ بَيْنَ قَوْمِي وَمَا أَمْشِي بِغِشٍّ إِنْ مَشَيْتُ

واعلم أن أصل السفارة من الكشف، والكاتب إنما يسمى سافرًا لأنه يكشف، والسفير إنما سمي سفيرًا أيضًا لأنه يكشف، وهؤلاء الملائكة لما كانوا وسائط بين الله وبين البشر في البيان والهداية والعلم، لا جرم سُموا سفرة.

الصفة الثانية لهؤلاء الملائكة: أنهم ﴿كِرَامٍ﴾ قال مقاتل: كرام على ربهم. وقال عطاء: يريد أنهم يتكرمون أن يكونوا مع ابن آدم إذا خلا مع زوجته للجماع وعند قضاء الحاجة.

الصفة الثالثة: أنهم: ﴿بَرَرَةٍ﴾ قال مقاتل: مطيعين، وبررة جمع بار، قال الفراء: لا يقولون فعلة للجمع إلا والواحد منه فاعل، مثل كافر وكفرة، وفاجر وفجرة. **القول الثاني في تفسير الصحف**: أنها هي صحف الأنبياء لقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨] يعني أن هذه التذكرة مثبتة في صحف الأنبياء المتقدمين، والسفرة الكرام البررة هم أصحاب رسول الله ﷺ، وقيل: هم القراء.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿مُطَهَّرَةٍ﴾ يقتضي أن طهارة تلك الصحف إنما حصلت بأيدي هؤلاء السفرة، فقال القفال في تقريره: لما كان لا يمسها إلا الملائكة المطهرون أضيف التطهير إليها لطهارة من يمسها.

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ۝١٧ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ۝١٩ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ۝٢٢﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما بدأ بذكر القصة المشتملة على ترفع صناديد قريش على فقراء المسلمين، عجَّب عباده المؤمنين من ذلك، فكأنه قيل: وأي سبب في هذا العجب والترفع

مع أن أوله نطفة قذوة وآخره جيفة مذرة، وفيها بين الوقتين حمال عذرة، فلا جرم ذكر تعالى ما يصلح أن يكون علاجًا لعجبهم، وما يصلح أن يكون علاجًا لكفرهم، فإن خلقة الإنسان تصلح لأن يستدل بها على وجود الصانع، ولأن يستدل بها على القول بالبعث والحشر والنشر.

المسألة الثانية: قال المفسرون: نزلت الآية في عتبة بن أبي لهب. وقال آخرون: المراد بالإنسان الذين أقبل الرسول عليهم وترك ابن أم مكتوم بسببهم. وقال آخرون: بل المراد ذم كل غني ترفع على فقير بسبب الغنى والفقر، والذي يدل على ذلك وجوه: **أحدها**: أنه تعالى ذمهم لترفعهم فوجب أن يعم الحكم بسبب عموم العلة. **وثانيها**: أنه تعالى زيف طريقتهم بسبب حقارة حال الإنسان في الابتداء والانتهاء على ما قال: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾ . . . ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ وعموم هذا الزجر يقتضي عموم الحكم. **وثالثها**: وهو أن حمل اللفظ على هذا الوجه أكثر فائدة، واللفظ محتمل له فوجب حمله عليه.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ دعاء عليه وهي من أشنع دعواتهم؛ لأن القتل غاية شدائد الدنيا و(ما أكفره) تعجب من إفراطه في كفران نعمة الله، فقوله: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ تنبيه على أنهم استحقوا أعظم أنواع العقاب، وقوله: ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ تنبيه على أنواع القبائح والمنكرات، فإن قيل: الدعاء على الإنسان إنما يليق بالعاجز، والقادر على الكل كيف يليق به ذاك؟ والتعجب أيضًا إنما يليق بالجاهل بسبب الشيء، فالعالم بالكل كيف يليق به ذاك؟ الجواب: أن ذلك ورد على أسلوب كلام العرب وتحقيقه ما ذكرنا أنه تعالى بيَّن أنهم استحقوا أعظم أنواع العقاب لأجل أنهم أتوا بأعظم أنواع القبائح. واعلم أن لكل محدث ثلاث مراتب أوله ووسطه وآخره، وأنه تعالى ذكر هذه المراتب الثلاثة للإنسان:

أما المرتبة الأولى: فهي قوله: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ وهو استفهام، وغرضه زيادة التقرير في التحقير.

ثم أجاب عن ذلك الاستفهام بقوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾ ولا شك أن النطفة شيء حقير مهين، والغرض منه أن من كان أصله (من) مثل هذا الشيء الحقير، فالنكير والتجبر لا يكون لائقًا به.

ثم قال: ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ وفيه وجوه: **أحدها**: قال الفراء: قدره أطوارًا نطفة ثم علقة إلى آخر خلقه وذكرًا أو أنثى وسعيدًا أو شقيًّا. **وثانيها**: قال الزجاج: المعنى قَدَّره على الاستواء، كما قال: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧]، **وثالثها**: يحتمل أن يكون المراد وقدَّر كل عضو في الكمية والكيفية بالقدر اللائق بمصلحته، ونظيره قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

وأما المرتبة الثانية: -وهي المرتبة المتوسطة- فهي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾ **وفيه مسألتان**:

المسألة الأولى: نصب السبيل بإضمار يسَّره، وفسَّره بيسره.

المسألة الثانية: ذكروا في تفسيره أقوالاً: **أحدها**: قال بعضهم: المراد تسهيل خروجه من بطن أمه، قالوا: إنه كان رأس المولود في بطن أمه من فوق ورجلاه من تحت، فإذا جاء وقت الخروج انقلب، فمن الذي أعطاه ذلك الإلهام إلا الله؟ ومما يؤكد هذا التأويل أن خروجه حيًّا من ذلك المنفذ الضيق من أعجب العجائب. **وثانيها**: قال أبو مسلم: المراد من هذه الآية هو المراد من قوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] فهو يتناول التمييز بين كل خير وشر يتعلق بالدنيا، وبين كل خير وشر يتعلق بالدين، أي جعلناه متمكنًا من سلوك سبيل الخير والشر، والتيسير يدخل فيه الإقدار والتعريف والعقل وبعثة الأنبياء، وإنزال الكتب. **وثالثها**: أن هذا مخصوص بأمر الدين؛ لأن لفظ السبيل مشعر بأن المقصود أحوال الدنيا (لا) أمور تحصل في الآخرة.

وأما المرتبة الثالثة: – وهي المرتبة الأخيرة – فهي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾.

واعلم أن هذه المرتبة الثالثة مشتملة أيضًا على ثلاث مراتب: الإماتة، والإقبار، والإنشار، أما الإماتة فقد ذكرنا منافعها في هذا الكتاب، ولا شك أنها هي الواسطة بين حال التكليف والمجازاة، وأما الإقبار فقال الفراء: جعله الله مقبورًا ولم يجعله ممن يلقى للطير والسباع؛ لأن القبر مما أُكرم به المسلم. قال: ولم يقل: (فقبره) لأن القابر هو الدافن بيده. والمقبر هو الله تعالى، يقال: قبر الميت، إذا دفنه وأقبر الميت، إذا أمر غيره بأن يجعله في القبر، والعرب تقول: بترت ذَنَب البعير، والله أبتره وعضبت قرن الثور، والله أعضبه، وطردت فلانًا عني، والله أطرده. أي صيره طريدًا.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ المراد منه الإحياء (و) البعث، وإنما قال: (إذا شاء) إشعارًا بأن وقته غير معلوم لنا، فتقديمه وتأخيره موكول إلى مشيئة الله تعالى، وأما سائر الأحوال المذكورة قبل ذلك فإنه يعلم أوقاتها من بعض الوجوه، إذ الموت وإن لم يعلم الإنسان وقته ففي الجملة يعلم أنه لا يتجاوز فيه إلا حدًّا معلومًا.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾.

واعلم أن قوله: ﴿كَلَّا﴾ ردع للإنسان عن تكبره وترفعه، أو عن كفره وإصراره على إنكار التوحيد، وعلى إنكاره البعث والحشر والنشر، وفي قوله: ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ وجوه: **أحدها**: قال مجاهد: لا يقضي أحد جميع ما كان مفروضًا عليه أبدًا، وهو إشارة إلى أن الإنسان لا ينفك عن تقصير ألبتة. وهذا التفسير عندي فيه نظر؛ لأن قوله: ﴿لَمَّا يَقْضِ﴾ الضمير فيه عائد إلى المذكور السابق، وهو الإنسان في قوله: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧] وليس المراد من الإنسان ههنا جميع الناس بل الإنسان الكافر، فقوله: ﴿لَمَّا يَقْضِ﴾ كيف يمكن حمله على جميع الناس؟!

وثانيها: أن يكون المعنى أن الإنسان المترفع المتكبر لم يقض ما أُمر به من ترك التكبر، إذ المعنى أن ذلك الإنسان الكافر لما يقض ما أُمر به من التأمل في دلائل الله، والتدبر في عجائب خلقه وبينات حكمته. وثالثها: قال الأستاذ أبو بكر بن فورك: كلا لم يقض الله لهذا الكافر ما أمره به من الإيمان وترك التكبر، بل أمره بما لم يقض له به.

واعلم أن عادة الله تعالى جارية في القرآن بأنه كلما ذكر الدلائل الموجودة في الأنفس، فإنه يذكر عقيبها الدلائل الموجودة في الآفاق، فجرى ههنا على تلك العادة وذكر دلائل الآفاق وبدأ بما يحتاج الإنسان إليه، فقال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ الذي يعيش به كيف دبرنا أمره، ولا شك أنه موضع الاعتبار، فإن الطعام الذي يتناول الإنسان له حالتان: إحداهما: متقدمة وهي الأمور التي لا بد من وجودها حتى يدخل ذلك الطعام في الوجود. والثانية: متأخرة، وهي الأمور التي لا بد منها في بدن الإنسان حتى يحصل له الانتفاع بذلك الطعام المأكول، ولما كان النوع الأول أظهر للحسن وأبعد عن الشبهة، لا جرم اكتفى الله تعالى بذكره؛ لأن دلائل القرآن لا بد وأن تكون بحيث ينتفع بها كل الخلق، فلا بد وأن تكون أبعد عن اللبس والشبهة، وهذا هو المراد من قوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ واعلم أن النبت إنما يحصل من القطر النازل من السماء الواقع في الأرض، فالسماء كالذكر، والأرض كالأنثى، فذكر في بيان نزل القطر قوله: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قوله ﴿صَبَبْنَا﴾ المراد منه الغيث، ثم انظر في أنه كيف حدث الغيث المشتمل على هذه المياه العظيمة، وكيف بقي معلقًا في جو السماء مع غاية ثقله، وتأمل في أسبابه القريبة والبعيدة، حتى يلوح لك شيء من آثار نور الله وعدله وحكمته، وفي تدبير خلقه هذا العالم.

المسألة الثانية: قرئ (إِنَّا) بالكسر، وهو على الاستئناف، و(أَنَّا) بالفتح على البدل من الطعام والتقدير: فلينظر الإنسان إلى أن كيف صببنا الماء. قال أبو علي الفارسي: من قرأ بكسر (إنا) كان ذلك تفسيرًا للنظر إلى طعامه كما أن قوله: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ [الأنفال: ٧٤] تفسير للوعد، ومن فتح فعلى معنى البدل بدل الاشتمال؛ لأن هذه الأشياء تشتمل على كون الطعام وحدوثه، فهو كقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٧] وقوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝ ٱلنَّارِ﴾ [البروج: ٤، ٥].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾. والمراد شق الأرض بالنبات، ثم ذكر تعالى ثمانية أنواع من النبات:

أولها: الحَب، وهو المشار إليه بقوله: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾. وهو كل ما حصد من نحو الحنطة

والشعير وغيرهما، وإنما قدم ذلك لأن كالأصل في الأغذية .

وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَعِنَبًا﴾ وإنما ذكره بعد الحب لأنه غذاء من وجه وفاكهة من وجه.

وثالثها: قوله تعالى: ﴿وَقَضْبًا﴾، وفيه قولان: الأول: أنه الرطبة وهي التي إذا يبست سميت بالقت، وأهل مكة يسمونها بالقضب وأصله من القطع، وذلك لأنه يُقضب مرة بعد أخرى، وكذلك القضيب لأنه يقضب أي يقطع. وهذا قول ابن عباس والضحاك ومقاتل، واختيار الفراء وأبي عبيدة والأصمعي.

والثاني: قال المبرد: القضب هو العلف بعينه، وأصله من أنه يُقضب أي يُقطعْ وهو قول الحسن.

والرابع والخامس: قوله تعالى: ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ ومنافعهما قد تقدمت في هذا الكتاب.

وسادسها: قوله تعالى: ﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ الأصل في الوصف بالغُلب الرقاب، فالغُلب: الغلاظ الأعناق، الواحد أغلب، يقال أسد أغلب، ثم ههنا قولان:

الأول: أن يكون المراد وصف كل حديقة بأن أشجارها متكاثفة متقاربة، وهذا قول مجاهد ومقاتل قالا: الغُلب: الملتفة الشجر بعضه في بعض، يقال: اغلولب العشب واغلولبت الأرض، إذا التف عشبها.

والثاني: أن يكون المراد وصف كل واحد من الأشجار بالغلظ والعظم، قال عطاء عن ابن عباس: يريد الشجر العظام. وقال الفراء: الغُلب: ما غلظ من النخل.

قوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾

وسابعها: قوله: ﴿وَفَاكِهَةً﴾ وقد استدل بعضهم بأن الله تعالى لما ذكر الفاكهة معطوفة على العنب والزيتون والنخل وجب أن لا تدخل هذه الأشياء في الفاكهة، وهذا قريب من جهة الظاهرة؛ لأن المعطوف مغاير للمعطوف عليه.

وثامنها: قوله تعالى: ﴿وَأَبًّا﴾ والأب هو المرعى، قال صاحب (الكشاف): لأنه يُؤب، أي يُؤم وينتجع، والأب والأم أخوان، قال الشاعر:

جِذْمُنَا قَيْسٌ وَنَجْدٌ دَارُنَا ... لَنَا الأَبُّ بِهِ وَالْمَكْرَعُ

وقيل: الأب: الفاكهة اليابسة لأنها تؤب للشتاء أي تُعد.

ولما ذكر الله تعالى ما يغتذى به الناس والحيوان قال: ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ . قال الفراء: خلقناه منفعة ومتعة لكم ولأنعامكم. وقال الزجاج: هو منصوب لأنه مصدر مؤكد لقوله: ﴿فَأَنْبَتْنَا﴾ لأن إنباته هذه الأشياء إمتاع لجميع الحيوان.

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه الأشياء وكان المقصود منها أمورًا ثلاثة: أولها: الدلائل الدالة

على التوحيد. وثانيها: الدلائل الدالة على القدرة على المعاد. وثالثها: أن هذا الإله الذي أحسن إلى عبيده بهذه الأنواع العظيمة من الإحسان - لا يليق بالعاقل أن يتمرد عن طاعته وأن يتكبر على عبيده، أتبع هذه الجملة بما يكون مؤكدًا لهذه الأغراض وهو شرح أهوال القيامة، فإن الإنسان إذا سمعها خاف فيدعوه ذلك الخوف إلى التأمل في الدلائل والإيمان بها والإعراض عن الكفر، ويدعوه ذلك أيضًا إلى ترك التكبر على الناس، وإلى إظهار التواضع إلى كل أحد، فلا جرم ذكر القيامة فقال: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ . قال المفسرون: يعني صيحة القيامة وهي النفخة الأخيرة، قال الزجاج: أصل الصخ في اللغة الطعن والصك، يقال: صخ رأسه بحجر، أي شدخه، والغراب يصخ بمنقاره في دبر البعير أي يطعن، فمعنى الصاخة: الصاكة بشدة صوتها للآذان. وذكر صاحب (الكشاف) وجهًا آخر فقال: يقال صخ لحديثه مثل أصاخ له، فوصفت النفخة بالصاخة مجازًا لأن الناس يصخون لها، أي يستمعون. ثم إنه تعالى وصف هول ذلك اليوم بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: يحتمل أن يكون المراد من الفرار ما يُشعر به ظاهره وهو التباعد والاحتراز، والسبب في ذلك الفرار الاحتراز عن المطالبة بالتبعات. يقول الأخ: ما واسيتني بمالك. والأبوان يقولان: قصَّرتَ في بِرنا، والصاحبة تقول: أطعمتني الحرام، وفعلت وصنعت. والبنون يقولون: ما علَّمتنا وما أرشدتنا. وقيل: أول من يفر من أخيه هابيل، ومن أبويه إبراهيم، ومن صاحبته نوح ولوط، ومن ابنه نوح، ويحتمل أن يكون المراد من الفرار ليس هو التباعد، بل المعنى أنه يوم يفر المرء من موالاة أخيه لاهتمامه بشأنه، وهو كقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ [البقرة: ١٦٦] وإما الفرار من نصرته، وهو كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾ [الدخان: ٤١] وإما ترك السؤال وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١٠].

المسألة الثانية: المراد أن الذين كان المرء في دار الدنيا يفر إليهم ويستجير بهم، فإنه يفر منهم في دار الآخرة، ذكروا في فائدة الترتيب كأنه قيل: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ بل من أبويه فإنهما أقرب من الأخوين، بل من الصاحبة والولد؛ لأن تعلق القلب بهما أشد من تعلقه بالأبوين.

﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾

ثم إنه تعالى لما ذكر هذا الفرار أتبعه بذكر سببه فقال تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾. وفي قوله: ﴿يُغْنِيهِ﴾ وجهان: **الأول**: قال ابن قتيبة: يغنيه، أي يصرفه ويصده عن قرابته. وأنشد:

سَيُغْنِيكَ حَرْبُ بَنِي مَالِكٍ عَنِ الْفُحْشِ وَالْجَهْلِ فِي الْمَحْفِلِ

أي سيشغلك، ويقال: أغن عني وجهك، أي اصرفه. **الثاني**: قال أهل المعاني: يغنيه أي ذلك الهم الذي بسبب خاصة نفسه قد ملأ صدره، فلم يبق فيه متسع لهمٍّ آخر، فصار شبيهًا بالغنى في أنه حصل عنده من ذلك المملوك شيء كثير.

واعلم أنه تعالى لما ذكر حال يوم القيامة في الهول، بيَّن أن المكلفين فيه على قسمين، منهم السعداء، ومنهم الأشقياء، فوصف السعداء بقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ . مسفرة مضيئة متهللة، من أسفر الصبح، إذا أضاء، وعن ابن عباس: من قيام الليل. لما روي: مَن كثرت صلاته بالليل، حسن وجهه بالنهار(١). وعن الضحاك: من آثار الوضوء. وقيل: من طول ما اغبرت في سبيل الله، وعندي أنه بسبب الخلاص من علائق الدنيا والاتصال بعالم القدس ومنازل الرضوان والرحمة ضاحكة، قال الكلبي: يعني بالفراغ من الحساب مستبشرة فرحة بما نالت من كرامة الله ورضاه.

---

(١) موضوع: رواه جابر وأنس: حديث جابر: أخرجه ابن ماجه (١/ ٤٢٢) رقم (١٣٣٣)، قال البوصيرى (١/ ١٥٧): هذا حديث ضعيف: والعقيلي (١/ ١٧٦) ترجمة (٢٢١) والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ١٢٩) رقم (٣٠٩٥)، وأخرجه أيضًا: ابن عدى (٦/ ٣٤٧)، ترجمة (١٨٢٩) موسى بن محمد بن عطاء، والقضاعي (١/ ٢٥٣) رقم (٤٠٩)، والديلمي (٣/ ٥٠١) رقم (٥٥٥٠) جميعًا من طريق ثابت بن موسى أبي يزيد عن شريك عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ. . . فذكره.

أما حديث أنس: فأخرجه ابن عساكر (٣١/ ٦٩). وأخرجه أيضا: القضاعي (١/ ٢٥٦) رقم (٤١٤) من طريق أبي الحسين محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن جميع الغساني، ثنا أحمد بن محمد بن سعيد أبو العباس الرقي بالمصيصة، ثنا أبو الحسين محمد بن هشام بن الوليد، ثنا جبارة بن المغلس عن كثير بن سليم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ. . . فذكره. وقال ابن الجوزي في (الموضوعات) (٢/ ١٠٩/ ١١١) بعد أن ذكر جميع طرق الحديث: قال رحمويه: بلغني عن محمد بن عبد الله بن نمير أنه ذكر له الحديث عن ثابت فقال: باطل شُبِّه على ثابت، وذلك أن شريكًا كان مزاحًا وكان ثابت رجلاً صالحًا، فيشتبه أن يكون ثابت دخل على شريك وهو يقول: حدثنا الاعمش عن أبي سفيان عن جابر عن النبي ﷺ فالتفت فرأى ثابتًا فقال يمازحة: (من صلى بالليل حسن وجهه بالنهار) فظن ثابت لغفلته أن هذا الكلام الذى قال شريك هو من الإسناد، وقال الفتني في (تذكرة الموضوعات) (١/ ٤٨): لا أصل له، وروي من طرق بعضها عند ابن ماجه، وأورد الكثير منها القضاعي وغيره، ولكن قرأت بخط شيخنا أنه ضعيف والمعتمد الأول، وأطنب ابن عدي في ورده وظن القضاعي أنه صحيح لكثرة طرقه، وهو معذور لأنه لم يكن حافظًا، واتفق أئمة الحديث على أنه من قول شريك لثابت قبل سرقة جماعة من ثابت: في الخلاصة قال الصغاني: هو موضوع. اللآلئ قال القضاعي في مسند الشهاب: روى هذا الحديث جماعة وما طعن أحد منهم في إسناده ولا متنه، وقد أنكره بعض الحفاظ وقال: إنه من كلام شريك حين دخل ثابت الزاهد عليه وهو يقول: حدثنا الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ ولم يذكر المتن فلما نظر إلى ثابت موسى قال: من كثرت صلاته. . . إلخ. لزهده فظن ثابت أنه روى الحديث بهذا الإسناد، فكان ثابت يحدث به عن شريك عن الأعمش، وليس له أصل إلا بهذا الوجه، وعن قوم مجروحين سرقوه من ثابت وردوه عن ثابت قال: وقد روي لنا من طرق كثيرة وعن ثقات غير ثابت وعن غير شريك، وروي عن أنس (شرف المؤمن قيامه بالليل وعزه استغناؤه عن الناس) لا يصح، المتهم به داود، قلت: لم ينفرد به بل توبع مع أن له شواهد: خلاصة قال الصغاني: موضوع. وفي الوجيز: هو حديث أبي هريرة وفيه داود بن عثمان حدث بالبواطيل قلت: قد توبع وشاهده ما أخرجه البخاري في تاريخه عن صهيب وحديث سهل بن سعد: (أحبب من شئت فإنك مفارقه) وفيه (شرف المؤمن قيامه بالليل) إلخ. وفيه محمد بن حميد كذبه أبو زرعة وغيره وزافر سيئ الحفظ لا يتابع على عامة ما يرويه قلت: صححه الحاكم، قال ابن حجر: اختلف فيه نظر حافظين في طرفي تناقض، فصححه الحاكم ووهاه ابن الجوزي، والصواب أن لا يحكم بالوضع ولا بالصحة. قلت: قد حسنه المنذري ولصدره شاهد عن جابر، وروي عن أهل البيت، وأورده الألباني في (الضعيفة) (٤٦٤٤) وقال: موضوع.

واعلم أن قوله: مسفرة إشارة إلى الخلاص عن هذا العالم وتبعاته، وأما الضاحكة والمستبشرة، فهما محمولتان على القوة النظرية والعملية، أو على وجدان المنفعة ووجدان التعظيم.

قوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ۝﴾

قال المبرد: الغبرة ما يصيب الإنسان من الغبار، وقوله: ﴿تَرْهَقُهَا﴾ أي تدركها عن قرب، كقولك: (رهقت الجبل) إذا لحقته بسرعة، والرهق: عجلة الهلاك، والقترة سواد كالدخان، ولا يرى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه، كما ترى وجوه الزنوج إذا اغبرت، وكأن الله تعالى جمع في وجوههم بين السواد والغبرة، كما جمعوا بين الكفر والفجور، والله أعلم.

واعلم أن المرجئة والخوارج تمسكوا بهذه الآية:

أما المرجئة فقالوا: إن هذه الآية دلت على أن أهل القيامة قسمان: أهل الثواب، وأهل العقاب، ودلت على أن أهل العقاب هم الكفرة، وثبت بالدليل أن الفساق من أهل الصلاة ليسوا بكفرة، وإذا لم يكونوا من الكفرة كانوا من أهل الثواب، وذلك يدل على أن صاحب الكبيرة من أهل الصلاة ليس له عقاب.

وأما الخوارج فإنهم قالوا: دلت سائر الدلائل على أن صاحب الكبيرة يعاقب، ودلت هذه الآية على أن كل من يعاقب فإنه كافر، فيلزم أن كل مذنب فإنه كافر.

والجواب: أكثر ما في الباب أن المذكور ههنا هو هذان الفريقان، وذلك لا يقتضي نفي الفريق الثالث، والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين، وصلاته على سيد المرسلين محمد النبي وآله وصحبه أجمعين.

سورة عَبَس

مكية في قول الجميع، وهي إحدى وأربعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾﴾

فيه ستُّ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿عَبَسَ﴾ أي: كَلَح بوَجْهِه؛ يقال: عَبَس وبَسَر. وقد تقدَّمَ[١]. ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أي: أعرَضَ بوجهه ﴿أَن جَآءَهُ﴾ «أنْ» في موضع نصبٍ لأنه مفعولٌ له، المعنى: لأنْ جاءه الأعمى، أيِ: الذي لا يُبْصِرُ بعينيه. فروى أهلُ التفسيرِ أجمع: أنَّ قوماً من أشراف قريشٍ كانوا عند النبيِّ ﷺ وقد طمع في إسلامهم، فأقْبَل عبد الله ابنُ أمِّ مكتوم، فكره رسول الله ﷺ أن يَقطَع عبدُ الله عليه كلامه، فأعْرَضَ عنه، ففيه نزلت هذه الآية.

قال مالك: إنَّ هشام بنَ عُروة حدَّثه عن عروةَ أنه قال: نزلتْ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ في ابنِ أمِّ مكتوم، جاء إلى النبيِّ ﷺ فجعل يقول: يا محمد اسْتَدْنِني، وعند النبيِّ ﷺ رجلٌ من عظماء المشركين، فجعل النبيُّ ﷺ يُعرِضُ عنه ويُقبِلُ على الآخَرِ، ويقول: «يا فلان، هل ترى بما أقولُ بأساً؟» فيقول: لا والدُّمَى، ما أرى بما تقولُ بأساً، فأنزل الله ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾[٢].

---

(١) ٢١/٣٧٨.

(٢) الموطأ ١/٢٠٣ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/١٨٩٣ . ووقع في الموطأ: لا والدِّماء، قال ابن الأثير في النهاية (دما): لا والدماء، أي: دماء الذبائح. ويروى: لا والدُّمَى، جمع دمية وهي الصورة، ويريد بها الأصنام.

وفي الترمذيِّ مُسنَداً قال: حدَّثنا سعيد بن يحيى بن سعيد الأُمَويُّ، حدَّثني أبي، قال: هذا ما عَرَضنا على هشام بنِ عُروةَ عن أبيه عن عائشة، قالت: نَزلَتْ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ في ابنِ أمِّ مكتومِ الأعمى، أتى رسولَ الله ﷺ فجعل يقول: يا رسولَ الله أرشِدْني، وعندَ رسولِ الله ﷺ رجلٌ من عظماء المشركين، فجعل رسولُ الله ﷺ يُعرِضُ عنه، ويُقبِلُ على الآخَرِ، ويقول: «أتَرى بما أقولُ بأساً» فيقول: لا، ففي هذا نزلت. قال: هذا حديث غريب(١).

الثانية: الآيةُ عِتابٌ من الله لنبيِّه ﷺ في إعراضه وتَولِّيه عن عبد الله ابن أمِّ مكتومٍ. ويقال: عمرو بن أمِّ مكتومٍ، واسمُ أمِّ مكتومٍ عاتكةُ بنت [عبد الله بن عنكثة بن] عامر ابن مخزوم، وعمرو هذا: هو ابنُ قيس بنِ زائدة بن الأصمِّ، وهو ابنُ خالِ خديجةَ رضي الله عنها(٢). وكان قد تَشَاغَلَ عنه برجلٍ من عظماء المشركين؛ يقال: كان الوليد بنَ المغيرة. ابن العربيِّ(٣): قاله المالكيةُ من علمائنا، وهو يُكْنَى أبا عبد شمس.

وقال قتادةُ: هو أمية بنُ خلف. وعنه: أُبيّ بن خلف(٤). وقال مجاهدٌ: كانوا ثلاثةً: عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأُبيّ بن خلف(٥). وقال عطاءٌ: عتبة بن ربيعة. سفيان الثوريُّ: كان النبيُّ ﷺ مع عمِّه العباس(٦).

الزمخشريُّ(٧): كان عنده صناديدُ قريشٍ: عتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعة، وأبو جهل بنُ هشام، والعباس بنُ عبد المطلِّب، وأميةُ بن خَلف، والوليدُ بن المغيرة، يدعوهم إلى

---

(١) سنن الترمذي (٣٣٣١).

(٢) الاستيعاب ٨/ ٣٥١، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٩٣ .

(٤) أخرج القولين الطبري ٢٤/ ١٠٤ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٠٧ فلم يذكر أبي بن خلف، وأخرجه عبد بن حميد وابن المنذر كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٥ وفيه: عتبة بن ربيعة وأمية بن خلف.

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٠٧ .

(٧) في الكشاف ٤/ ٢١٧ .

الإسلام. رَجاءَ أن يُسلم بإسلامهم غيرُهم.

قال ابن العربيِّ: أمَّا قولُ علمائنا: إنَّه الوليد بنُ المغيرة، وقال آخرون: إنه أميةُ ابن خلفٍ والعباسُ، وهذا كلُّه باطلٌ وجهلٌ من المفسِّرين الذين لم يتحقَّقوا الدِّينَ، ذلك أنَّ أميةَ والوليدَ كانا بمكةَ وابن أمِّ مكتومٍ كان بالمدينة، ما حَضَر معهما ولا حَضَرا معه، وكان موتُهما كافرين، أحدُهما قَبلَ الهجرةِ، والآخَرُ ببدرٍ، ولم يَقصِدْ قطُّ أميةُ المدينةَ، ولا حَضَر عندَه مُفرَداً، ولا مع أحدٍ[١].

الثالثة: أقبَلَ ابنُ أمِّ مكتومٍ والنبيُّ ﷺ مُشتغلٌ بمَن حَضَره من وجوه قريشٍ يدعوهم إلى الله تعالى، وقد قَوِيَ طَمَعُه في إسلامهم، وكان في إسلامهم إسلامُ مَن وراءَهم مِن قومهم، فجاء ابنُ أمِّ مكتومٍ وهو أعمى فقال: يا رسولَ الله، علِّمْني ممَّا عَلَّمكَ الله، وجعل يناديه ويُكثِرُ النداءَ، ولا يدري أنه مشتغلٌ بغيره، حتى ظهرت الكراهةُ في وجه رسولِ الله ﷺ لقَطْعِه كلامَه، وقال في نفسه: يقولُ هؤلاء: إنَّما أتباعُه العُميانُ والسِّفْلةُ والعبيد، فعَبَس وأعرَضَ عنه، فنزلت الآية[٢]. قال الثَّوريُّ: فكان النبيُّ ﷺ بعد ذلك إذا رأى ابنَ مكتومٍ يبسُطُ له رداءَه ويقول: «مرحباً بمَن عاتَبني فيه ربِّي». ويقولُ: «هل مِن حاجةٍ»؟ واستخلفه على المدينة مرَّتين في غزوتين غَزَاهما[٣]. قال أنس: فرأيتُه يوَم القادسيةِ راكباً وعليه درعٌ ومعه رايةٌ سوداء[٤].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٨٩٣-١٨٩٤ . وذكر أبو حيان في البحر ٨/ ٤٢٧ هذا الكلام عن القرطبي، ثم قال: والغلط من القرطبي كيف ينفي حضورَ ابن أمِّ مكتوم معهما (يعني أمية والوليد)، وهو وهمٌ منه، وكلهم من قريش، والسورة كلها مكية بالإجماع... وكانوا جميعهم بمكة حين نزول هذه الآية.

(٢) أسباب النزول للواحدي ص٤٧٩ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٤٦ ، وأخرجه بنحوه عبد بن حميد عن مجاهد، كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٥ .

(٣) الكشاف ٤/ ٢١٧، وتفسير البغوي ٤/ ٤٤٦ ، وتفسير الرازي ٣٠/ ٥٤ .

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٤٨ ، وأحمد (١٢٣٤٤)، والطبري ٢٤/ ١٠٤ ، وزاد أحمد في أوله: استخلف رسول الله ﷺ ابن أم مكتوم مرتين على المدينة، ولقد رأيته...، وأخرجه أبو داود (٢٩٣١) بذكر الاستخلاف فقط.

الرابعة: قال علماؤنا: ما فَعَله ابنُ أمِّ مكتومٍ كان من سوءِ الأدبِ لو كان عالماً بأنَّ النبيَّ ﷺ مشغولٌ بغيره، وأنَّه يَرْجو إسلامَهم، ولكنَّ الله تبارك وتعالى عاتَبه حتى لا تَنكَسِرَ قلوبُ أهلِ الصُّفَّةِ، أو ليعلم أنَّ المؤمن الفقيرَ خيرٌ من الغنيِّ، وكان النظر إلى المؤمن أوْلَى، وإنْ كان فقيراً أصلحُ وأوْلَى من الأمرِ الآخَرِ، وهو الإقبالُ على الأغنياء طمعاً في إيمانهم، وإن كان ذلك أيضاً نوعاً من المصلحة، وعلى هذا يخرج قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ الآية [الأنفال:٦٧] على ما تقدَّم.

وقيل: إنَّما قَصَدَ النبيُّ ﷺ تأليفَ الرجلِ، ثقةً بما كان في قلبِ ابنِ أمِّ مكتومٍ من الإيمان؛ كما قال: «إنِّي لأُعطي[١] الرجلَ وغيرُه أحبُّ إليَّ منه، مخافةَ أن يَكُبَّه الله في النار على وجهه»[٢].

الخامسة: قال ابن زيد: إنَّما عبس النبيُّ ﷺ لابنِ أمِّ مكتومٍ وأَعرَضَ عنه؛ لأنه أشار إلى الذي كان يقودُه أنْ يكفَّه، فدفعه ابنُ أمِّ مكتومٍ، وأبَى إلَّا أنْ يكلِّم النبيَّ ﷺ حتى يعلِّمه[٣]. فكان في هذا نوعُ جفاءٍ منه، ومع هذا أنزل الله في حقِّه على نبيِّه ﷺ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ بلفظِ الإخبار عن الغائب؛ تعظيماً له[٤]، ولم يَقُلْ: عبَسْتَ وتولَّيْتَ. ثم أقبلَ عليه بمواجهةِ الخطاب تأنيساً له فقال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ أي: يُعلِمُكَ ﴿لَعَلَّهُۥ﴾ يعني ابنَ أمِّ مكتوم ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾ بما استدعى منكَ تعليمَه إياه من القرآن والدِّين، بأنْ يزدادَ طهارةً في دينه، وزوالِ ظلمةِ الجهلِ عنه.

وقيل: الضميرُ في «لعله» للكافر، يعني: إنَّك إذا طمعتَ في أنْ يتزكَّى بالإسلام، أو يذَّكَّرَ فتقرِّبه الذِّكرى إلى قبولِ الحقِّ، وما يُدْريكَ أنَّ ما طَمِعتَ فيه كائن[٥].

---

(١) في (م): لأصل.

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٥٢٢)، والبخاري (٢٧)، ومسلم (١٥٠) عن سعد بن أبي وقاص ﷺ. والكلام من أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٩٣ .

(٣) أخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ١٠٥ .

(٤) في (د): تعليماً.

(٥) تفسير الرازي ٣١/ ٥٦ .

وقرأ الحسن: «آن جاءه الأعمى» بالمدِّ على الاستفهام، فـ«أنْ» متعلِّقةٌ بفعلٍ محذوفٍ دلَّ عليه ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ التقدير: أأن جاءه أعرَضَ عنه وتَولَّى؟ فيوقَفُ على هذه القراءةِ على «وتولَّى»[(١)]. ولا يوقفُ عليه على قراءة الخبر، وهي قراءةُ العامة.

السادسة: نظيرُ هذه الآيةِ في العتاب قولُه تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الآية:٥٢] وكذلك قولُه في سورة الكهف: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الآية:٢٨] وما كان مثلَه، والله أعلم.

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ يتَّعِظ بما تقولُ ﴿فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ أي: العِظَةُ. وقراءةُ العامَّةِ: «فتنفعُه» بضمِّ العين، عَطفاً على «يَزَّكَّى». وقرأ عاصم وابنُ أبي إسحاقَ وعيسى: «فتنفَعَه» نصباً[(٢)]. وهي قراءةُ السُّلَميِّ وزرِّ بنِ حُبَيش، على جواب لعلَّ؛ لأنه غيرُ مُوجَبٍ، كقوله تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ ثم قال: ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ [غافر:٣٦-٣٧].

قوله تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ أي: كان ذا ثروةٍ وغِنًى ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ أي: تَعَرَّضُ له، وتُصغِي لكلامه. والتَّصدِّي: الإصغاءُ؛ قال الراعي:

تَصَدَّى لِوضَّاحٍ كأنَّ جبينَه سِرَاجُ الدُّجَى تُجبَى إليه الأساورُ[(٣)]

وأصلُه: تَتَصدَّدُ من الصَّدَد[(٤)]، وهو ما استقبلك، وصار قُبالَتَك؛ يقال: داري

---

(١) المحتسب ٢/ ٣٥٢، وقال ابن جني: فكأنه قال: أَلِأنْ جاءه الأعمى كان ذلك منه. والقراءة في القراءات الشاذة ص١٦٨.

(٢) السبعة ص٦٧٢، والتيسير ص٢٢٠.

(٣) في (ي) و(م): يحني إليه الأساور، والمثبت من باقي النسخ. وروايته في ديوان الراعي ص١٠٩، ومنتهى الطلب من أشعار العرب ٦/ ٩٢:

تَصَدَّى لوضاح الجبين كأنه سراجُ الدُّجى تُجْبَى إليه السوائر

(٤) في (م). الصد، وفي (ظ) و(ي): الصدود، والمثبت من (د)، وهو موافق لما في تفسير الرازي ٣١/ ٥٦، والبحر ٨/ ٤٢٥، والدر المصون ١٠/ ٦٨٧.

صَدَدَ دارِه، أي: قُبالتَها، نُصِبَ على الظرف[١]. وقيل: من الصَّدَى وهو العطش. أي: تتعرَّض له كما يتعرَّض العطشانُ للماء، والمصَاداةُ: المعارَضة.

وقراءةُ العامَّةِ: «تَصَدَّى» بالتخفيف، على طَرْحِ التاء الثانية تخفيفاً. وقرأ نافعٌ وابنُ مُحيصنٍ بالتشديد على الإدغام[٢].

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ أي: لا يهتدي هذا الكافر ولا يؤمن، إنَّما أنت رسولٌ، ما عليك إلَّا البلاغ.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾ يطلبُ العلمَ لله ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ أي: يخافُ اللهَ ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ أي: تُعرِضُ عنه بوجهك وتَشتَغلُ بغيره. وأصلُه: تتلهَّى. يقال: لَهيتُ عن الشيء ألهَى، أي: تَشاغَلتُ عنه. والتلهِّي: التغافل. ولَهِيتُ عنه وتَلهَّيْتُ بمعنى.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ «كلَّا» كلمةُ رَدْعٍ وزَجْرٍ، أي: ما الأمرُ كما تفعلُ مع الفريقين، أي: لا تَفْعلْ بعدها مثلها: من إقبالك على الغنيِّ، وإعراضِكَ عن المؤمن الفقير، والذي جرى من النبيِّ ﷺ كان تَرْكَ الأولَى كما تقدَّم، ولو حُمِلَ على صغيرةٍ لم يَبْعُدْ؛ قاله القشيريُّ.

والوقفُ على «كلَّا» على هذا الوجهِ جائزٌ. ويجوز أن تقفَ على «تَلَهَّى»، ثم تبتدئ: «كلَّا»، على معنى: حقًّا.

﴿إِنَّهَا﴾ أي: السورةُ، أو آياتُ القرآن ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ أي: مَوعظةٌ وتَبصِرةٌ للخَلْق ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي: اتَّعظ بالقرآن.

قال الجُرْجانيُّ: «إنها» أي: القرآن، والقرآنُ مذكَّر إلَّا أنه لمَّا جُعل القرآنُ

---

(١) الصحاح (صدد).

(٢) أي: «تصَدَّى»، وقرأ بها من السبعة أيضاً ابن كثير. السبعة ص٦٧٢، والتيسير ص٢٢٠ .

تذكرةً، أخرجه على لفظِ التَّذكِرة، ولو ذَكَّره لجاز، كما قال تعالى في موضعٍ آخَر: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾ [المدثر: ٥٤]. ويدلُّ على أنَّه أرادَ القرآنَ قولُه: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾[1] أي: كان حافظاً له غيرَ ناسٍ، وذكَّر الضمير. لأنَّ التذكرة في معنى الذِّكرِ والوَعظِ. وروى الضحَّاكُ عن ابن عباس في قوله تعالى: «فمن شاء ذَكَره» قال: مَن شاء الله تبارك وتعالى ألْهَمه[2].

ثم أخبر عن جَلَالته فقال: ﴿فِى صُحُفٍ﴾ جمعُ صحيفةٍ ﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾ أي: عند الله، قاله السّدِّيّ. الطبريُّ: «مُكَرَّمةٍ» في الدِّين؛ لمَا فيها من العلم والحِكَم. وقيل: «مُكَرمةٍ» لأنها نزل بها كرامُ الحفَظة[3]. أو لأنَّها نازلةٌ من اللوح المحفوظ.

وقيل: «مكرمةٍ» لأنَّها نزلت من كريم؛ لأنَّ كرامةَ الكتابِ من كرامة صاحبِه[4].

وقيل: المرادُ كُتُبُ الأنبياءِ، دليلُه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ . صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨-١٩][5].

﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ رفيعة القَدرِ عند الله. وقيل: مرفوعة عنده تبارك وتعالى. وقيل: مرفوعة في السماء السابعة؛ قاله يحيى بن سلام. الطبريُّ: مرفوعة الذِّكرِ والقَدْر. وقيل: مرفوعة عن الشُّبَه والتناقُض[6].

﴿مُّطَهَّرَةٍۭ﴾ قال الحسن: من كلِّ دَنَس. وقيل: مُصَانة[7] عن أنْ ينالَها الكفَّار.

---

(١) تفسير الرازي ٣١/ ٥٩.

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٢٣ بلفظ: فمن شاء الله ألهمه وفهمه القرآن حتى يذكره ويتَّعظ به.

(٣) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٠٣، ولم نقف على قول الطبري في تفسيره.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٠٣.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٤٤٧.

(٦) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٠٣-٢٠٤، ولم نقف على قول الطبري في تفسيره.

(٧) كذا في النسخ، والصواب: مصونة، يقال: صنت الشيء فهو مَصُون، ولا تقل: مُصَان. تهذيب اللغة ١٢/ ٢٤٢، والصحاح (صون)، واللسان (صون).

وهو معنى قولِ السُّدِّيّ. وعن الحسن أيضاً: مُطهَّرة من أن تنزل على المشركين[١].

وقيل: أي: القرآن أُثبت للملائكة في صحفٍ يقرؤونها، فهي مكرمةٌ مرفوعةٌ مطهَّرة.

﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ أي: الملائكة الذين جعلهم الله سُفراءَ بينه وبين رُسُله، فهم بَررةٌ لم يتدنَّسوا بمعصيةٍ. ورَوى أبو صالحٍ عن ابن عباس قال: هي مطهَّرةٌ تجعلُ التطهيرَ لمن حملها، «بأيدي سَفَرةٍ» قال: كَتَبةٍ[٢]. وقاله مجاهدٌ أيضاً[٣].

وهم الملائكةُ الكرامُ الكاتبون لأعمالِ العبادِ في الأسفار، التي هي الكتبُ، واحدُهم: سافِرٌ، كقولك: كاتبٌ وكَتَبة. ويقال: سَفرتُ، أي: كتبتُ، والكتاب: هو السِّفْر، وجَمْعُه أسفار. قال الزجَّاج[٤]: وإنَّما قيل للكِتَاب سِفرٌ ـ بكَسرِ السِّين ـ وللكاتب سافِر؛ لأنَّ معناه أنه يبيِّنُ الشيءَ ويوضِّحُه. يقال: أسفَر الصبح: إذا أضاء، وسفَرتِ المرأة: إنما كَشَفَت النقابَ عن وجهها. قال: ومنه سَفرتُ بين القومِ أسفِرُ سِفارةً: أصلَحتُ بينهم. وقاله الفرَّاء، وأنشد:

فما أدَعُ السِّفارةَ بينَ قومي ... ولا أمشي بغِشٍّ إنْ مَشَيْتُ[٥]

والسَّفير: الرسولُ والمُصْلِحُ بين القوم، والجمع: سُفَراء، مثل: فقيهٍ وفقهاء. ويقال للورَّاقين: سُفَراءُ، بلُغةِ العِبرانية.

وقال قتادة: السَّفَرة هنا هم القُرَّاء؛ لأنَّهم يقرؤون الأسفار. وعنه أيضاً كقولِ

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٠٤.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٠٨ مختصراً بلفظ: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ قال: كتبة.

(٣) أخرجه عبد بن حميد كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٥.

(٤) في معاني القرآن ٥/ ٢٨٤.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٦، وتفسير الطبري ٢٤/ ١٠٩، ونسبه المرزباني في معجم الشعراء ص٢٨٥ لموسى بن جابر الحنفي اليمامي، وهو شاعر نصراني جاهلي يلقب: أُزَيْرِق اليمامة، ويعرف بابن ليلى.

ابن عباس[١].

وقال وهب بن مُنبِّه: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ هم أصحابُ النبيِّ ﷺ. قال ابن العربي[٢]: لقد كان أصحابُ رسولِ الله ﷺ سَفَرةً، كِراماً بَرَرَةً، ولكنْ ليسوا بمُرادِينَ بهذه الآية، ولا قارَبوا المرادِينَ بها، بل هي لفظةٌ مخصوصةٌ بالملائكة عند الإطلاق، ولا يشاركُهم فيها سواهم، ولا يدخل معهم في مُتناولها غيرُهم. ورُوي في الصَّحيح عن عائشةَ رضي الله عنها: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «[مَثَلُ] الذي يقرأ القرآنَ وهو حافظٌ له، مع السَّفَرةِ الكرامِ البررة، ومَثَلُ الذي يقرؤه وهو يتَعاهدُه، وهو عليه شديدٌ، فله أجران» متفقٌ عليه، واللفظُ للبخاريِّ[٣].

﴿كِرَامٍ﴾ أي: كرامٍ على ربِّهم؛ قاله الكلبيُّ. الحسن: كرام عن المعاصي، فهم يرفعون أنفسَهم عنها[٤]. وروى الضحاك عن ابن عباس في «كِرامٍ» قال: يتكرَّمون أن يكونوا مع ابنِ آدمَ إذا خلا بزوجته، أو تَبرَّز لغائطه[٥]. وقيل: أي: يُؤْثِرون منافعَ غيرهم على منافع أنفسهم.

﴿بَرَرَةٍ﴾ جمعُ بارٍّ، مثل: كافرٍ وكَفَرة، وساحِرٍ وسَحَرة، وفاجِرٍ وفَجَرة؛ يقال: بَرٌّ وبارٌّ: إذا كان أهلاً للصِّدق، ومنه بَرَّ فلانٌ في يمينه، أي: صَدَق، وفلانٌ يَبرُّ خالقَه ويتبرَّرُه، أي: يطيعُه، فمعنى «بررةٍ» مطيعون لله، صادقون لله في أعمالِهم[٦]. وقد مضى في سورة الواقعة قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ . فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ . لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا

---

(١) أخرج القولين الطبري ٢٤/١٠٨-١٠٩ .

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٩٤ ، وما قبله وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٣) صحيح البخاري (٤٩٣٧)، وصحيح مسلم (٧٩٨)، وسلف ١/ ١٤ .

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٠٤ .

(٥) ذكره الرازي ٣١/ ٥٨ عن عطاء قوله.

(٦) في (د): إيمانهم.

﴿ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الآيات: ٧٧-٧٩] أنَّهم الكرامُ البرَرَةُ في هذه السورة(١).

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ «قتِل» أي: لُعِن. وقيل: عُذِّب. والإنسانُ: الكافر. روى الأعمشُ عن مجاهدٍ قال: ما كان في القرآن «قُتِل الإنسان» فإنَّما عُني به الكافر(٢).

وروى الضحَّاكُ عن ابن عباس قال: نزلت في عُتبةَ بنِ أبي لَهَب، وكان قد آمن فلمَّا نزلتْ «والنجم» ارتدَّ، وقال: آمنت بالقرآن كلِّه إلَّا النجم، فأنزل الله جلَّ ثناؤه فيه ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾(٣) أي: لُعِنَ عُتبةُ، حيث كَفَر بالقرآن، ودعا عليه رسول الله ﷺ فقال: «اللهُمَّ سَلِّطْ عليه كَلْبكَ أسَدَ الغاضِرَة» فخرج من فَورِه بتجارةٍ إلى الشام، فلمَّا انتهى إلى الغاضرة تذكَّر دعاءَ النبيِّ ﷺ، فجعل لمَن معه ألفَ دينارٍ إنْ هو أصبح حيًّا، فجعلوه في وسط الرُّفقةِ، وجعلوا المتاعَ حوله، فبينما هم على ذلك أقبل الأسد، فلمَّا دنا من الرِّحال وثب فإذا هو فوقه فمزَّقه، وقد كان أبوه نَدبه وبكى وقال: ما قال محمدٌ شيئاً قَطُّ إلَّا كان(٤).

---

(١) عند تفسير الآية (٧٩) في المسألة الخامسة.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ١١٠ .

(٣) أخرجه ابن المنذر عن عكرمة، كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٥ ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٠٥ عن ابن جريج ومجاهد، ولم نقف عليه عن ابن عباس.

(٤) سلف المرفوع منه في بداية تفسير سورة النجم بلفظ: «اللهم سلط عليه كلباً من كلابك». وكذا أخرجه أبو الفرج في الأغاني ١٦/ ١٧٦ عن عكرمة، ثم قال: فقال ابن عباس: فخرج إلى الشام في ركب فيهم هبار بن الأسود، حتى إذا كانوا بوادي الغاضرة، وهي مَسبَعة، نزلوا ليلاً...، وذكر الخبر.

وروى أبو صالح عن ابن عباس: «ما أكْفَره»: أيُّ شيءٍ أكفَرَه[١]؟

وقيل: «ما» تعجُّبٌ؛ وعادةُ العربِ إذا تعجَّبوا من شيءٍ قالوا: قاتَلَه الله ما أحسَنه! وأخْزاه الله ما أظْلَمَه! والمعنى: اعجَبوا مِن كُفرِ الإنسانِ، لجميع ما ذَكَرنا بعد هذا[٢].

وقيل: ما أكْفَره بالله ونعمِه مع معرفتِه بكَثرةِ إحسانِه إليه، على التعجُّب أيضاً؛ قال ابنُ جُرَيج: أي: ما أشدَّ كُفرَه[٣]!

وقيل: «ما» استفهامٌ، أي: أيُّ شيءٍ دعاه إلى الكُفْر[٤]؛ فهو استفهامُ توبيخٍ. و«ما» تَحتَمِلُ التعجُّبَ، وتحتملُ معنى «أيّ» فتكونُ استفهاماً.

﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ أي: مِن أيِّ شيءٍ خَلَقَ الله هذا الكافرَ فيتكبَّر؟ أي: اعجَبوا لخَلْقِه. ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: من ماءٍ يَسيرٍ مهين جَماد ﴿خَلَقَهُۥ﴾ فلمَ يغْلُظُ[٥] في نفسه؟! قال الحسن: كيف يتكبَّر مَن خرج من سبيل البولِ مرَّتين[٦].

﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ في بَطْنِ أمِّه؛ كذا روى الضحَّاك عن ابن عباس[٧]، أي: قدَّر يديه ورجليه وعينيه وسائر آرابه[٨]، وحَسناً ودَميماً، وقصيراً وطويلاً، وشقيًّا وسعيداً.

وقيل: «فقدَّره» أي: فسوَّاه، كما قال: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ

---

(١) ذكره أبو الليث ٣/ ٤٤٨ عن الكلبي، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٠٥ عن السدي ويحيى ابن سلام.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٠٥ .

(٣) أخرجه ابن المنذر كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٥ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٤٤٨ ، وقد سلف هذا القول قريباً من رواية أبي صالح عن ابن عباس.

(٥) في (م): يغلط.

(٦) ذكره عن الحسن الجصاص في أحكام القرآن ٣/ ٣٥٢ ، وأخرجه البيهقي في الشعب (٨٢١٠) عن الأحنف بن قيس ﷺ.

(٧) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة، كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٦ .

(٨) جمع إرْب، وهو العضو. اللسان (أرب).

﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧]. وقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ﴾ [الانفطار: ٧].

وقيل: فقدَّره أطواراً، أي: من حالٍ إلى حالٍ؛ نطفةً ثم علقةً، إلى أنْ تمَّ خَلقُه.

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ قال ابن عباس في روايةِ عطاءٍ، وقتادةُ والسدِّيُّ ومقاتلٌ: يسَّره للخروج من بَطْنِ أمِّه[1].

مجاهدٌ: يسَّره لطريقِ الخيرِ والشرِّ، أي: بيَّن له ذلك، دليلُه: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣]، ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]. وقاله الحسن وعطاء[2]، وابنُ عباسٍ أيضاً في روايةِ أبي صالح عنه.

وعن مجاهدٍ أيضاً قال: سبيل الشَّقاءِ والسعادة[3]. ابن زيد: سبيل الإسلام[4].

وقال أبو بكر بن طاهرٍ: يَسَّر على كلِّ أحدٍ ما خَلَقه له، وقدَّره[5] عليه؛ دليلُه قولُه عليه السلام: «اعْمَلوا فكلٌّ مُيسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له»[6].

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ أي: جَعَل له قبراً يُوَارَى فيه إكراماً له، ولم يَجعَله ممَّا يلْقَى على وَجْهِ الأرضِ تأكله الطيرُ والعَوافي، قاله الفرَّاء[7].

وقال أبو عبيدةَ: «أقْبَره»: جَعل له قبراً، وأَمَر أنْ يُقبَر. قال أبو عبيدة: ولـمَّا قَتَل عمرُ بن هُبيرةَ صالحَ بن عبد الرحمن، قالت بنو تميم ودخلوا عليه: أَقْبِرنا صالحاً، فقال: دونكُموه. وقال: «أقْبَره» ولم يَقُلْ: قَبَره؛ لأنَّ القابِرَ هو الدَّافِنُ بيده، قال الأعشى:

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ١١١-١١٢ .

(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ١١٢-١١٣ عن مجاهد والحسن.

(٣) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٤٨ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ١١٣ .

(٥) في (د) و(ظ): وقدر.

(٦) أخرجه أحمد (٦٢١)، والبخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧) من حديث علي ﷺ، وسلف ١٠/ ٤٢١ .

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٢٣٧ ، والعوافي مفردها: العافية والعافي، وهو كل طالب رزق من إنسان أو بهيمة أو طائر. النهاية (عفا).

لو أسندَتْ مَيْتاً إلى نحرِها عاشَ ولم يُنقَلْ إلى قابِرِ(١)

يقال: قبرتُ الميتَ: إذا دفنته، وأقْبره الله: أي: صيَّره بحيث يُقْبَر، وجعل له قبراً؛ تقول العرب: بترتُ ذَنَب البعير، وأبترَه الله، وعَضَبْتُ قَرنَ الثورِ، وأعضبه الله، وطَرَدتُ فلاناً، والله أطْرَدَه، أي: صيَّره طَريداً(٢).

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ أي: أحياه بعدَ مَوْته. وقراءةُ العامَّة: «أنشرهُ» بالألف. وروى أبو حَيوةَ عن نافعٍ وشعيب بن أبي حمزة: «شاء نَشَره» بغير ألفٍ(٣)، لغتان فصيحتان بمعنى(٤)؛ يقال: أنشَر الله الميتَ ونَشَره؛ قال الأعشى:

حتى يقولَ الناسُ مِمَّا رأوْا يا عَجَباً للميِّتِ النَّاشِرِ(٥)

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ قال مجاهدٌ وقتادةُ: «لَمَّا يقضِ»: لا يقضي أحدٌ ما أُمرِ به(٦). وكان ابن عباس يقول: «لمَّا يَقْضِ ما أَمَره»: لم يَفِ بالميثاق الذي أُخِذَ عليه في صُلْبِ آدم. ثم قيل: «كَلَّا» رَدْعٌ وزَجرٌ، أي: ليس الأمرُ كما يقول الكافر؛ فإنَّ الكافر إذا أُخْبِرَ بالنُّشور وقال(٧): ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] ربَّما يقول: قد قَضَيتُ ما أَمِرْتُ به. فقال: كلَّا لم يَقْضِ شيئاً،

---

(١) مجاز القرآن ٢/ ٢٨٦ ، والبيت في ديوان الأعشى ١٨٩ . وعمر بن هبيرة هو أبو المثنى الفزاري الشامي، أمير العراقين، توفي سنة (١٠٧هـ). السير ٤/ ٥٦٢ . وصالح بن عبد الرحمن هو كاتب الحجاج، وهو الذي نقل ديوان العراق من الفارسية إلى العربية، وكان يرى رأي الخوارج، ويقال: إن الذي قتله هو الحجاج. ينظر ما سلف ١/ ٣٥١ ، وغريب الحديث لابن قتيبة ١/ ٢٨١ ، والكامل للمبرد ٢/ ٧٢٩ ، وجمهرة اللغة ١/ ٢٧١ .

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٧ .

(٣) المحتسب ٢/ ٣٥٣ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٣٩ ، والبحر ٨/ ٤٢٩ . وشعيب بن أبي حمزة هو أبو بشر الأموي مولاهم الحمصي الكاتب، واسم أبيه دينار. توفي سنة (١٦٢هـ). السير ٧/ ١٨٧ .

(٤) وقال ابن جني في المحتسب ٢/ ٣٥٣ : «أنشر» أقوى اللغتين.

(٥) ديوان الأعشى ص١٩١ .

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ١١٤ عن مجاهد بلفظ: لا يقضي أحد أبداً ما افترِض عليه.

(٧) في (د) و(م): قال.

بل هو كافرٌ بي وبرسولي.

وقال الحسن: أي: حَقّاً لم يَقْضِ[١]، أي: لم يَعمَلْ بما أُمِرَ به. و«ما» في قوله: «لمَّا» عمادٌ للكلام[٢]؛ كقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٩] وقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ [المؤمنون:٤٠].

وقال الإمامُ ابن فُورَك: أي: كلَّا لَمَّا يَقْضِ الله لهذا الكافرِ ما أمره به من الإيمان، بل أمرَه بما لم يَقضِ له [به][٣].

ابن الأنباريّ: الوَقفُ على «كلَّا» قبيح، والوقفُ على «أمره» و«أنشره» جيد[٤]؛ فـ«كلَّا» على هذا بمعنى حقًّا.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾

قوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ لمَّا ذَكَر جلَّ ثناؤه ابتداءَ خَلْقِ الإنسانِ، ذَكَر ما يسَّر مِن رِزقه، أي: فَلينظرْ كيف خَلَق الله طعامَه. وهذا النظرُ نظرُ القلبِ بالفكر، أي: ليتَدَبَّرْ كيف خَلَق الله طعامَه الذي هو قِوَامُ حياتِه، وكيف هَيَّأ له أسبابَ المعاش، ليستعدَّ بها للمعاد. ورُوي عن الحسن ومجاهدٍ قالا: «فَلينظرِ الإنسان إلى طعامِهِ» أي: إلى مدخله ومخرجه[٥].

وروى ابن أبي خَيثمةَ عن الضحَّاك بن سفيان الكلابيِّ قال: قال لي النبيُّ ﷺ: «يا ضحاكُ، ما طعامُك؟» قلت: يا رسولَ الله! اللَّحمُ واللَّبن. قال: «ثم يصيرُ إلى ماذا؟»

---

(١) تفسير البغوي ٤/٤٤٨، وزاد المسير ٩/٣٢.

(٢) يعني صلة.

(٣) تفسير الرازي ٣١/٦١، وما بين حاصرتين منه.

(٤) بنحوه في إيضاح الوقف والابتداء ٢/٩٦٦.

(٥) تفسير البغوي ٤/٤٤٨ عن مجاهد، وأخرجه عنه عبد بن حميد كما في الدر المنثور ٦/٣١٦.

قلتُ: إلى ما قد عَلِمتَه؛ قال: «فإنَّ الله ضَرَبَ ما يَخرجُ من ابنِ آدمَ مثلاً للدنيا»[١].

وقال أبيّ بن كعب: قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ مَطْعَم ابن آدمَ جُعِل مَثَلاً للدنيا، وإنْ قَزَحَه ومَلَحه، فانظرْ إلى ما يصير»[٢].

وقال أبو الوليد: سألتُ ابنَ عمر عن الرجل يدخلُ الخَلاءَ فينظر ما يخرجُ منه؛ قال: يأتيه الملكُ فيقولُ: انْظُر ما بَخِلتَ به إلى ما صار[٣]؟

قوله تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ قراءةُ العامَّة: «إنَّا» بالكسر، على الاستئناف. وقرأ الكوفيون ورُوَيس عن يعقوب: «أنَّا» بفتح الهمزة[٤]، فـ«أنَّا» في موضعِ خَفْضٍ على الترجمة عن الطعام، فهو بدَلٌ منه، كأنه قال: فلينظُرِ الإنسانُ إلى طعامِهِ، إلى أنَّا صَبَبنا. فلا يَحسُنُ الوقفُ على «طعامِهِ» من[٥] هذه القراءة، وكذلك إنْ رَفَعتَ «أنَّ»[٦] بإضمارِ: هو أنَّا صببنا؛ لأنَّها في حالِ رَفعِها مُترجمةٌ عن الطعام. وقيل: المعنى: لأنَّا صَببنا الماءَ، فأخْرَجْنا به الطعامَ، أي: كذلك[٧] كان.

وقرأ الحسين بن علي: «أنّى» ممال، بمعنى كيف[٨]؟ فَمن أخذَ بهذه القراءة قال:

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٧٤٧).

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده على مسند أحمد (٢١٢٣٩)، قال السندي كما في حاشية المسند: قَزَحَه، أي: أصلحه بالأبزار (يعني حبوب التوابل)، و«إن» وصلية، أي: انظروا إلى ما يصير إليه وإن أصلحه. و«مَلَحه» بالتخفيف، يقال: مَلحت القدر: إذا طرحت فيها من الملح بقدر، وأملحتها وملَّحتها بالتشديد: إذا كثَّرت فيها الملح حتى فسدت.

(٣) ذكره بنحوه عن ابن عمر ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٩، وأخرج نحوه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي قلابة، كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٦.

(٤) السبعة ص٦٧٢، والتيسير ص٢٢٠، والنشر ٢/ ٣٩٨.

(٥) في (ظ): على، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٦٧، والكلام منه.

(٦) في (م): أنا، وليست في (ظ)، والمثبت من باقي النسخ وإيضاح الوقف والابتداء.

(٧) في (ظ): لذلك.

(٨) الكشاف ٤/ ٢١٩، والبحر ٨/ ٤٢٩، ووقع في النسخ الخطية: الحسن بن علي، وهو موافق لما في الدر المصون ١٠/ ٦٩٢، وفتح القدير ٥/ ٣٨٥، وذكر القراءة ابن الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٦٧، وفيه: وقرأ بعض القراء...

الوقفُ على «طعامه» تامٌّ. ويقال: معنى «أنّى»: أين، إلّا أنَّ فيها كنايةً عن الوجوه، وتأويلُها: من أيِّ وجهٍ صببنا الماء؛ قال الكُميت:

أنَّــى ومِــن أيــن آبَــكَ الــطــرَبُ مِــن حــيــثُ لا صَــبــوةٌ ولا رِيــبُ[1]

﴿صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾: يعني الغيثَ والأمطارَ ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾: أي: بالنبات ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ أي: قمحاً وشعيراً وسُلْتاً، وسائرَ ما يُحصَدُ ويدَّخر ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ وهو القَتُّ والعَلَف؛ عن الحسن[2]. سمِّي بذلك لأنه يقضب، أي: يُقْطَعُ بعد ظهورِه مرَّةً بعد مرةٍ. قاله القُتبيُّ وثعلب[3]. وأهلُ مكةَ يسمُّون القَتَّ: القَضْب[4].

وقال ابن عباس: هو الرُّطَبُ؛ لأنه يُقضَبُ من النخل، ولأنه ذَكَر العِنَبَ قبلَه. وعنه أيضاً: أنه الفِصفِصةُ[5]، وهو القَتُّ الرَّطْبُ.

وقال الخليل: القَضبُ: الفِصْفِصةُ الرَّطْبةُ ـ وقيل: بالسِّين ـ فإذا يبسَتْ فهو قَتٌّ. قال: والقَضْبُ اسمٌ يقع على ما يُقضَبُ من أغصان الشجرة، ليتَّخذَ منها سِهامٌ أو قِسيٌّ[6].

ويقال: قَضْباً، يعني جميعَ ما يُقضَبُ، مثل القَتِّ والكُرَّاثِ وسائر البقول التي تُقطَع فينبتُ أصلُها.

---

(١) شرح هاشميات الكميت ص١٠٠، وإيضاح الوقف والابتداء ٢/٩٦٧، والكلام منه. قال أبو رياش القيسي شارح الهاشميات: آبك: أتاك ليلاً، والطَّرَب: الخفَّة من حزن ومن فرح جميعاً. يقول: إنما طربُك إلى بني هاشم لا صبوةٌ في صبا، ولا رِيب، أي: لا ريبة.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/١١٦ دون قوله: القت. والقَتُّ: الفِصْفِصة، وهي نبات كالبرسيم. المعجم الوسيط (قت) و(رطب). وفي النهاية (فصفص): الفِصْفِصة: هي الرَّطبةُ من علف الدوابّ، وتسمى: القت، فإذا جفَّ فهو قَضب. ويقال: فِسْفِسة بالسين.

(٣) تفسير الغريب لابن قتيبة ص٥١٤، وذكره عن ثعلب ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/٤٣٩، وهو بنحوه في مجالس ثعلب ص٢٢٩، ووقع في النسخ: قال، بدل: قاله.

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/٢٣٨، وتفسير الطبري ٢٤/١١٦.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/١١٦، ولم نقف على الذي قبله.

(٦) بنحوه في العين ٥/٥٢-٥٣.

وفي «الصحاح»: والقَضبةُ والقَضبُ الرَّطْبةُ، وهي الإسْفِسْتُ بالفارسية، والموضع الذي تَنْبُتُ فيه: مَقضَبة[١].

﴿وَزَيْتُونًا﴾ وهي شجرةُ الزيتونِ ﴿وَنَخْلًا﴾ يعني النخيل ﴿وَحَدَآئِقَ﴾ أي: بساتين، واحدُها حديقة. قال الكلبيُّ: وكلُّ شيءٍ أُحيطَ عليه من نخيلٍ أو شجرٍ فهو حديقةٌ، وما لم يُحَطْ عليه فليس بحديقة[٢].

﴿غُلْبًا﴾ عِظَاماً شجرُها؛ يقال: شجرةٌ غَلباءُ، ويقال للأسد: الأغلَب؛ لأنه مُصمَتُ العنقِ، لا يَلتفتُ إلَّا جميعاً؛ قال العجَّاج:

مازِلتُ يومُ البَينِ ألوِي صَلَبي والرأسَ حتى صِرتُ مِثلَ الأغلَبِ[٣]

ورجلٌ أغلبُ بيِّنُ الغَلبِ: إذا كان غليظَ الرقبة. والأصلُ في الوصف بالغلب: الرقاب، فاستُعير. قال عمرو بن مَعْدِي كَرِب:

يَمشي بها غُلبُ الرقابِ كأنهم بُزْلٌ كُسِينَ من الكُحَيلِ جِلَالا[٤]

وحديقةٌ غَلبَاءُ: ملتفَّةٌ، وحدائقُ غُلبٌ. واغلَوْلَبَ العشبُ: بلغ والتَفَّ البعضُ بالبعض. قال ابن عباس: الغُلْب: جمع أغلَبَ وغَلباءَ، وهي الغِلاظ[٥]. وعنه أيضاً: الطِّوَال. قتادةُ وابنُ زيد: الغُلْبُ: النخلُ الكِرام. وعن ابن زيد أيضاً وعِكرمةُ: عِظَامُ الأوساطِ والجُذوع. مجاهد: ملتفَّة[٦].

---

(١) الصحاح (قضب). والرَّطبة: الفِصْفِصة، وكلُّ ما أكل من البنات غضًّا طريًّا. المعجم الوسيط (رطب).

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٤٤٩ .

(٣) ذكره ابن دريد في الجمهرة ١/ ٢٩٨ و٣١٨ عن الأغلب العجلي، وقال: الصَّلَب: الصُّلْب، لغة تميمية. ولم نقف عليه في ديوان العجاج.

(٤) الكشاف ٤/ ٢٢٠ . البُزُل: جمع بَزول، وهو البعير طلع نابه وذلك في السنة الثامنة أو التاسعة. المعجم الوسيط (بزل). والجِلال جمع جلٌّ (بضم الجيم وبفتحها) وهو ما تُلْبَسه الدابة لتصان به. والكُحيل كزبير: النفط أو القطران تُطْلى به الإبل. القاموس (جلل) و(كحل).

(٥) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٦ ، ولفظه: الغلب: ما غلظ.

(٦) تنظر هذه الأخبار في تفسير الطبري ٢٤/ ١١٧-١١٩ .

﴿وَفَٰكِهَةً﴾ أي: ما تأكلُه الناسُ من ثمار الأشجار، كالتين والخَوخِ وغيرِهما ﴿وَأَبًّا﴾ هو ما تأكلُه البهائم من العُشب؛ قال ابن عباس والحسن: الأبُّ: كلُّ ما أنبتَت الأرضُ، ممَّا لا يأكلُه الناس[١]، وما يأكلُه الآدميون هو الحَصيدة، ومنه قولُ الشاعر في مَدحِ النبيِّ ﷺ:

لـه دَعـوةٌ مَـيـمـونـةٌ رِيـحُـهـا الـصَّـبـا بـهـا يُـنـبِـتُ الله الـحـصِـيـدةَ والأبّـا[٢]

وقيل: إنَّما سمِّي أبًّا؛ لأنَّه يُؤَبُّ، أي: يُؤمُّ ويُنتجَعُ. والأبُّ والأمُّ أخَوان؛ قال:

جِـذمُـنـا قـيـسٌ ونَـجْـدٌ دارُنـا ولـنـا الأبُّ بـه والـمـكْـرَعُ[٣]

وقال الضحَّاك: الأبُّ: كلُّ شيءٍ يَنْبتُ على وَجْهِ الأرضُ[٤]. وكذا قال أبو رَزِين: هو النبات. يدلُّ عليه قولُ ابنِ عباس قال: الأبُّ: ما تُنبتُ الأرضُ ممّا يأكلُ الناسُ والأنعام[٥].

وعن ابن عباسٍ أيضاً وابنِ أبي طلحةَ: الأبُّ: الثمارُ الرَّطبة[٦].

وقال الضحاك: هو التِّبنُ خاصةً. وهو مَحْكيٌّ عن ابن عباس أيضاً[٧]؛ قال الشاعر:

فـمـا لَـهُـمْ مَـرْتَـعٌ لِـلـسَّـوَا مِ والأبُّ عـنـدَهُـمْ يُـقْـدَرُ[٨]

---

(١) أخرجه عن ابن عباس ابن خزيمة (٢١٧٢) ـ (٢١٧٤)، والطبري ٢٤/ ١٢١ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٠٨ ، ونسبه صاحب كتاب الوافي بالوفيات ١١/ ٣٣٢ لحرب بن رَيْطة.

(٣) جمهرة اللغة ١/ ١٣ ، وتهذيب اللغة ١٥/ ٥٩٩ ، والكشاف ٤/ ٢٢٠ ، والكلام منه. قوله: جِذْمنا، الجذْم بالكسر: الأصل، القاموس (جذم). وقال ابن دريد: المكرع: الذي تكرع فيه الماشية، مثل ماء السماء، ، يقال: كرع في الماء: إذا غابت فيه أكارعه.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٠٨ .

(٥) أخرج قول أبي رزين وقول ابن عباس الطبري ٢٤/ ١٢١ .

(٦) تفسير الطبري ٢٤/ ١٢٣ ، والنكت والعيون ٦/ ٢٠٨ .

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٩ عن الضحاك، والنكت والعيون ٦/ ٢٠٨ عن ابن عباس، وأخرجه عن الضحاك عبد بن حميد، كما في الدر المنثور ٦/ ٣١٧ . ووقع في النسخ: التين، والمثبت عن المصادر.

(٨) النكت والعيون ٦/ ٢٠٨ ، والسَّوام: الإبل الراعية. القاموس (سوم).

الكلبيُّ: هو كلُّ نباتٍ سوى الفاكهةِ. وقيل: الفاكهةُ: رَطْبُ الثمارِ، والأبُّ يابِسُها[١].

وقال إبراهيمُ التَّيميُّ: سُئل أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ عن تفسير الفاكهةِ والأبِّ، فقال: أيُّ سماءٍ تُظِلُّني، وأيُّ أرضٍ تُقِلُّني، إذا قلتُ في كتابِ اللهِ ما لا أعلَم[٢].

وقال أنس: سمعتُ عمر بنَ الخطاب ﷺ قرأ هذه الآية ثم قال: كلُّ هذا قد عَرفناه، فما الأبُّ؟ ثم رفع عصاً كانت بيده وقال: هذا لعَمرُ الله التكلُّفُ، وما عليك يا ابنَ أمِّ عمرَ ألَّا تَدري ما الأبُّ؟ ثم قال: اتَّبِعوا ما تَبيَّن[٣] لكم من هذا الكتابِ، وما لَا فَدَعوه[٤].

ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «خُلِقتُم من سَبْعٍ، و رزُقتُم من سبعٍ، فاسْجُدوا لله على سبعٍ». وإنَّما أراد بقوله: «خُلقتُم من سبع» يعني: ﴿مِن نُّطْفَةٍ . ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ . ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ الآية [الحج: ٥]، والرزقُ من سَبعٍ، وهو قولُه تعالى: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا﴾ إلى قوله: ﴿وَفَٰكِهَةً﴾[٥]، ثم قال: «وأبًّا»، وهو يدلُّ على أنه ليس برزقٍ لابنِ آدم، وأنَّه مما تَختصُّ به البهائم. والله أعلم.

﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ﴾ نصب على المصدر المؤكِّد؛ لأنَّ إنباتَ هذه الأشياءِ إمتاعٌ لجميعِ

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٠٨ .

(٢) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص٢٢٧ ، وهو منقطع بين إبراهيم التيمي وأبي بكر رضي الله عنهما. وروي كذلك عن طريق إبراهيم النخعي عن أبي بكر، وهو أيضاً منقطع كما ذكر الحافظ في الفتح ١٣/ ٢٦٥ ، وقال: لكن أحدهما يقوي الآخر.

(٣) في النسخ عدا (ظ): بين، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للكشاف ٤/ ٢٢٠ ، والكلام منه.

(٤) أخرجه ابن سعد ٣/ ٣٢٧ ، وأبو عبيد في فضائل القرآن ص٢٢٧ ، وسعيد بن منصور في سننه (٤٣ ـ تفسير)، والطبري ٢٤/ ١٢٠ و١٢٣ ، ونقله المصنف عن الكشاف ٤/ ٢٢٠ . قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: وهذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه، وإلا فهو وكلُّ مَن قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض.

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ٤٤٩ ، ولم نقف عليه مسنداً.

الحيوانات. وهذا ضربُ مَثَلٍ؛ ضرَبَه الله تعالى لبَعْثِ الموتى من قبورهم، كنباتِ الزرعِ بعد دُثُوره[١]، كما تقدَّم بيانُه في غيرِ موضعٍ. ويتضمَّنُ امتناناً عليهم بما أنْعَم به وقد مضى في غيرِ موضعٍ أيضاً.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ لمَّا ذَكَر أمرَ المعاشِ أمرَ ذكَر المَعادِ، ليتزوَّدوا له بالأعمال الصالحة، وبالإنفاق ممَّا امتَنَّ به عليهم. والصَّاخَّةُ: الصيحةُ التي تكون عنها القيامةُ، وهي النفخةُ الثانية، تَصُخُّ الأسماعَ: أي: تُصِمُّها فلا تَسْمَعُ إلَّا ما يُدعَى به للإحياء.

وذكر ناسٌ من المفسرين قالوا: تُصِيخُ لها الأسماعُ، مِن قولك: أصاخَ إلى كذا، أي: اسْتَمَعَ إليه، ومنه الحديثُ: «ما من دابَّةٍ إلَّا وهي مُصيخةٌ يومَ الجمعةِ شَفَقًا من الساعةِ، إلَّا الجنَّ والإنس»[٢]. وقال الشاعر:

يُصِيخُ للنَّبْأَةِ أسماعَهُ ... إصاخةَ الناشِدِ للمُنْشِدِ[٣]

قال بعضُ العلماءِ: وهذا يؤخَذُ على جهةِ التسليم للقُدَماء، فأمَّا اللغةُ فمقتضاها القولُ الأولُ؛ قال الخليل: الصاخَّة: صيحةٌ تَصُخُّ الآذانَ صَخًّا، أي: تُصِمُّها بشدةِ

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٠٨ .

(٢) قطعة من حديث طويل أخرجه مالك في الموطأ ١/ ١٠٨ ، وأحمد (١٠٣٠٣)، وأبو داود (١٠٤٦)، والنسائي في المجتبى ٣/ ١١٣-١١٥ عن أبي هريرة ﷺ. ووقع عند أحمد وأبي داود: مُسيخة، بدل: مصيخة. قال الخطابي في معالم السنن ١/ ٢٤٢ : يقال: أصاخ وأساخ، بمعنى واحد.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٢٠٩ ، ووقع في (م): إصاخة المنشد للمنشد. والنَّبْأة: الصوت الخفي. القاموس (نبأ).

وَقعَتها[(١)]. وأصلُ الكلمةِ في اللغة: الصَّكُّ الشديد. وقيل: هي مأخوذةٌ من صخَّه بالحجر: إذا صَكَّه، قال الراجز:

يا جارتي هل لكِ أنْ تجالدي ... جلادةً كالصَّكِّ بالجَلامِدِ[(٢)]

ومن هذا البابِ قولُ العربِ: صَخَّتْهم الصاخَّةُ وباقَتْهم البائقة[(٣)]، وهي الداهية. الطبريُّ: وأحسبُه من صَخَّ فلانٌ فلاناً: إذا أصْماه[(٤)].

قال ابن العربيِّ: الصاخَّة التي تُورِثُ الصمَمَ، وإنَّها لمُسمِعةٌ، وهذا من بديع الفصاحة، حتى لقد قال بعضُ حَديثي الأسنان حديثي الأزمان:

أصَمَّ بِكَ الناعي وإنْ كان أسمَعا[(٥)]

وقال آخر:

أصَمَّني سِرُّهم أيامَ فُرقتهم ... فهل سمِعتُم بسِرٍّ يُورِثُ الصَّمَما[(٦)]

لعَمْرُ الله إنَّ صيحةَ القيامةِ لمسمِعةٌ تُصِمُّ عن الدنيا، وتُسمِعُ أمورَ الآخرة.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ أي: يهربُ، أي: تَجيءُ الصاخَّة في هذا اليومِ الذي يهربُ فيه من أخيه، أي: من مُوَالاةِ أخيه ومُكالمَتهِ؛ لأنه لا يتفرَّغُ لذلك لاشتغاله بنفسه، كما قال بعده: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ أي: يَشْغَلُه عن غيره.

وقيل: إنَّما يفرُّ حذراً من مطالبتهم إياه بمَا[(٧)] بينهم من التَّبِعات. وقيل: لئلَّا يَرَوْا

(١) العين ٤/ ١٣٥ ، ووقع في (ظ): بشدة وقعها.

(٢) لم نقف عليه. قوله: بالجلامد، جمع جَلْمد، وهو الصخر. والصك: الضرب الشديد بالشيء العريض. اللسان (جلمد) و(صك).

(٣) في النسخ عدا (ظ): وباتتهم البائتة، والمثبت من (ظ). وفي البحر ٨/ ٤٢٩ : ونابتهم النائبة.

(٤) كذا ذكر المصنف، والذي في تفسير الطبري ٢٤/ ١٢٤ : وأحسبها مأخوذة من قولهم: صاخ فلان لصوت فلان: إذا استمع له.

(٥) البيت لأبي تمام، وهو في ديوانه بشرح التبريزي ٤/ ٩٩ ، وعجزه: وأصبح مَغْنَى الجودِ بعدكَ بَلقَعا.

(٦) البيت لأبي تمام، وهو في ديوانه بشرح التبريزي ٣/ ١٦٦ برواية... هل كنت تعرف سرًّا يورث الصمما.

(٧) في (د) و (م): لما.

ما هو فيه من الشدَّة. وقيل: لعِلْمِه أنَّهم لا ينفعونه ولا يُغْنونَ عنه شيئاً، كما قال: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾ [الدخان: ٤١].

وقال عبد الله بنُ طاهرِ الأبهَريُّ: يَفِرُّ منهم لِمَا تبيَّنَ له من عَجزِهم وقلَّةِ حيلتهم، إلى مَن يملكُ كَشفَ تلك الكُروبِ والهمومِ عنه، ولو ظَهَر له ذلك في الدنيا لَمَا اعتَمَدَ شيئاً سوى ربِّه تعالى.

﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ أي: زوجته. ﴿وَبَنِيهِ﴾ أي: أولاده.

وذكر الضحَّاك عن ابن عباس قال: يفرُّ قابيلُ من أخيه هابيلَ، ويفرُّ النبيُّ ﷺ من أمِّه، وإبراهيمُ عليه السلام من أبيه، ونوحٌ عليه السلام من ابنه، ولوطٌ من امرأته، وآدمُ من سَوأةِ بنيه[1].

وقال الحسن: أولُ مَن يفرُّ يومَ القيامةِ من أبيه: إبراهيمُ، وأولُ مَن يفرُّ من ابنه نوحٌ، ،أولُ مَن يفرُّ من امرأته لوطٌ. قال: فيرَوْنَ أنَّ هذه الآيةَ نزلت فيهم[2] وهذا فرارُ التبرُّؤ.

﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾. في «صحيح» مسلم عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «يُحشَرُ الناسُ يومَ القيامةِ حُفاةً عُراةً غُرلاً» قلتُ: يا رسولَ الله! الرجالُ والنساءُ جميعاً ينظُر بعضُهم إلى بعضٍ؟ قال: «يا عائشة، الأمر أشدُّ مِن أن ينظرَ بعضُهم إلى بعضٍ»[3].

خرَّجه التِّرمذيُّ عن ابن عباس: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «تُحشَرون حُفاةً عُراةً غُرْلاً» فقالت امرأةٌ: أينْظُرُ بعضُنا ـ أو يرى بعضُنا ـ عورة بعض؟ قال: «يا فلانة، لكلِّ امرِئ

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٣٤١ عن قتادة دون قوله: وآدم من سوأة بنيه. ولم نقف عليه عن ابن عباس.

(٢) أخرجه ابن عساكر ٨/٦٤ .

(٣) صحيح مسلم (٢٨٥٩)، وسلف ٢٩٧/١٣ . قوله: غرلاً، الغُرْل جمع الأَغْرل، وهو الأقلف. النهاية (غرل).

مِنهم يومئذٍ شأنٌ يُغنِيهِ». قال: حديثٌ حسنٌ صحيح[(١)].

وقراءةُ العامَّة بالغَيْنِ المعجَمة، أي: حالٌ يشغَله عن الأقرباء. وقرأ ابنُ مُحيصنٍ وحُميدٌ: «يَعنِيهِ» بفتح الياءِ، وعين غير معجَمة[(٢)]، أي: يَعْنيه أمره.

وقال القُتَبيُّ: يُغْنيه[(٣)]: يَصْرِفُه ويصُدُّه عن قرابته، ومنه يقال: أغنِ عنِّي وجهك، أي: اصرِفْه، وأغنِ عنِّي السَّفيه[(٤)]؛ قال خُفاف:

سَيُغْنِيكَ[(٥)] حربُ بني مالكٍ عن الفُحْشِ والجهلِ في المحْفلِ

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾: أي: مُشرقةٌ مضيئة، قد عَلمتْ مالَها من الفوز والنعيم، وهي وجوهُ المؤمنين. ﴿ضَاحِكَةٌ﴾ أي: مسرورة فَرِحة ﴿مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ أي: بما آتاها الله من الكرامة.

وقال عطاءٌ الخُراسانيُّ: «مُسْفِرة» من طولِ ما اغبرَّتْ في سبيل الله جلَّ ثناؤه. ذكَره أبو نعيم[(٦)].

الضحَّاك: مِن آثارِ الوضوء. ابنُ عباس: من قيام الليلِ؛ لمَا رُوي في الحديث: «مَن كَثُرتْ صلاتُه بالليل حَسُنَ وجهُه بالنهار»[(٧)] يقال: أَسْفَر الصُّبحُ: إذا أضاء.

---

(١) سنن الترمذي (٣٣٣٢).

(٢) المحتسب ٢/ ٣٥٣ عن ابن محيصن.

(٣) في (د) و(م) و(ي): يعنيه، والمثبت من (ظ)، وانظر التعليق الذي بعده.

(٤) في (ظ) و(م) و(ي): اعن عني وجهك . . . واعن عن السفيه، وكذلك وقع في مطبوع تفسير الغريب لابن قتيبة ص٥١٥ ، والمثبت من (د)، وهو موافق لما نقله ابن الجوزي في زاد المسير ٩/ ٣٥ عن ابن قتيبة، وينظر تفسير الرازي ٣١/ ٦٤ ، واللباب ٢٠/ ١٧١ ، وفتح القدير ٥/ ٣٨٥ ، وتهذيب اللغة ٨/ ٢٠٢ .

(٥) في (م) و(ي): سيعنيك، ولم تجود في (ظ)، والمثبت من (د) وتفسير الرازي ٣١/ ٦٤ ، والبيت فيه دون نسبة.

(٦) في الحلية ٥/ ٢٠٠ .

(٧) أخرجه ابن ماجه (١٣٣٣)، وابن الجوزي في الموضوعات (٧٩١-٧٩٦) عن جابر ﷺ وأخرجه ابن الجوزي أيضاً (٧٩٧) عن أنس ﷺ، وقال: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، وسلف ١٦/ ٢٩٣ . والكلام من الكشاف ٤/ ٢٢٠ .

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ أي: غبارٌ ودُخانٌ ﴿تَرْهَقُهَا﴾ أي: تغشاها ﴿قَتَرَةٌ﴾ أي: كسوفٌ وسواد. كذا قال ابن عباس(١). وعنه أيضاً: ذِلَّةٌ وشِدَّة(٢). والقتَر في كلام العرب: الغبار، جمع القَتَرة، عن أبي عُبيدة(٣)؛ وأنشد الفرزدقُ:

مُتَوَّجٌ بِرداءِ المُلْكِ يَتْبعُه ... مَوجٌ ترى فوقَه الراياتِ والقَترا(٤)

وفي الخبر: إنَّ البهائم إذا صارت تراباً يومَ القيامة، حُوِّلَ ذلك الترابُ في وجوه الكفار(٥).

وقال زيد بن أسلم: القَتَرةُ: ما ارتفعتْ إلى السماء، والغَبَرة: ما انحطَّتْ إلى الأرض، والغبارُ والغَبَرَةُ واحدٌ(٦).

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ﴾ جمعُ كافرٍ ﴿الْفَجَرَةُ﴾ جمعُ فاجِرٍ، وهو الكاذبُ المفتري على الله تعالى. وقيل: الفاسق؛ فَجَر فُجوراً، أي: فَسَق. وفَجَر، أي: كذب. وأصلُه: الميل، والفاجِرُ: المائل. وقد مضى بيانُه والكلامُ فيه(٧). والحمد لله وحده.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٥/ ٣٠٧ ، ولفظه: «قترة»، قال: سواد الوجوه.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٢٧ ، دون قوله: وشدة.

(٣) في (د) و(م): عبيد، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الصحاح (قتر)، والكلام منه، وكذا في اللسان (قتر).

(٤) الصحاح (قتر)، والبيت في ديوان الفرزدق ١/ ٢٣٤ ، برواية: مُعْتَصِبٌ برداء الملك...

(٥) ذكره الطبري ٢٤/ ١٢٧ .

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٢٧ عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

(٧) ٢١/ ٤٠٩ .

سُورَةُ عَبَسَ

مكيَّةٌ، وهيَ إحدى وأربعونَ آيةً(١)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١ ـ ٢) ـ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ رُوِيَ أنَّ ابنَ أمِّ مَكتوم أتى رسولَ اللهِ ﷺ وعندَهُ صَناديدُ قُرَيشٍ يدعوهُمْ إلى الإسلامِ، فقال: يا رسولَ اللهِ! علِّمْني ممَّا علَّمَك اللهُ، وكرَّرَ ذلك ولم يعلَمْ تَشاغُلَه بالقَومِ، فكَرِهَ رسولُ اللهِ ﷺ قَطْعَهُ لكلامِه وعبسَ وأعرَضَ عنهُ، فنزلَتْ(٢).

فكانَ رسولُ اللهِ ﷺ يُكرِمُه، ويقولُ إذا رآهُ: «مرحبًا بمَنْ عاتَبَني فيهِ ربِّي»(٣)، واستخلفَهُ على المدينَةِ مرَّتينِ(٤).

---

(١) قال أبو عمرو الداني في «البيان في عد آي القرآن» (ص: ٢٦٤): وهي أربعون آية في الشامي وإحدى وأربعون في عدد أبي جعفر والبصري واثنتان وأربعون في عدد الباقين.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ١٠٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٣٩٩)، عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: فيه غرابة ونكارة، وقد تكلم في إسناده. ورواه الترمذي (٣٣٣١) بنحوه من حديث عائشة رضي الله عنها وقال: هذا حديث غريب. وروى بعضهم هذا الحديث عن هشام بن عروة، عن أبيه قال: أنزل: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ في ابن أم مكتوم، ولم يذكر فيه عن عائشة.

(٣) أورده مكي بن أبي طالب في «الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٨٠٥٣) عن سفيان الثوري، والسمعاني في «تفسيره» (٦/ ١٥٧) عن سفيان بن عيينة. وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٨/ ٤١٧)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٤٤٩) دون نسبة، وذكره الديلمي في «مسند الفردوس» (٦٥١٠) عن أنس رضي الله عنه.

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٣٠٠٠)، وأبو داود (٢٩٣١)، عن أنس رضي الله عنه بلفظ: «استخلف ابن أم مكتوم على المدينة مرتين يصلي بهم وهو أعمى».

وقُرِئَ: (عَبَّسَ) بالتَّشديدِ[١] للمُبالغَةِ.

و﴿أَن جَآءَهُ﴾ علةٌ لـ(تولى) أو ﴿عَبَسَ﴾ على اختلافِ المذهبينِ[٢].

وقُرِئَ: (أأن) بهمزتينِ[٣]، وبألفٍ بينَهُما[٤] بمَعنى: أَلِأَنْ جاءَهُ الأعمى فعلَ ذلك.

وذِكْرُ الأعمى للإشعارِ بعُذرِهِ في الإقدامِ على قَطعِ كَلامِ الرَّسولِ عليهِ السَّلامُ بالقومِ، والدَّلالةِ على أنَّه أحقُّ بالرَّأفَةِ والرِّفقِ، أو لزيادةِ الإنكارِ، كأنَّه قال: تولَّى لكَونِه أعمى، كالالتفاتِ في قولِه: (٣) ـ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾؛ أي: وأيُّ شيءٍ يجعَلُكَ دارِيًا بحالِه لعلَّهُ يَتطهَّرُ مِن الآثامِ بما يتلقَّفُ مِنكَ، وفيه إيماءٌ بأنَّ إعراضَهُ كانَ لتَزكِيَةِ غيرِه.

(٤) ـ ﴿أو يذكَّرُ فتَنْفَعُهُ الذِّكرى﴾: أو يتَّعِظُ فتَنفعُهُ مَوعِظَتُكَ.

وقيلَ: الضَّميرُ في ﴿لَعَلَّهُۥ﴾ للكافرِ؛ أي: إنَّكَ طَمِعْتَ في تَزكِّيهِ بالإسلامِ وتذكُّرِه بالمَوعِظَةِ ولذلك أعرضتَ عَن غيرِه، فما يُدريكَ أنَّ ما طَمِعْتَ فيهِ كائِنٌ.

وقرأ عاصمٌ بالنَّصبِ[٥] جوابًا لـ(لعل).

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٩) عن بعضهم.

(٢) «على احتلاف المذهبَينِ» يعني: في إعمالِ أيِّ الفعلَينِ أَولَى في التَّنازعِ، وإن كانَ بحسبِ المعنى علّةً لهما معًا. قاله الشهاب.

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٣٦)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٩) عن بعضهم.

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٩)، و«المحتسب» (٢/ ٣٥٢) عن الحسن. ذكراها بالمد ولم يشيرا لهمز بعد المد.

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٦٧٢)، و«التيسير» (ص: ٢٢٠).

(٥ ـ ٦) ـ ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾: تتعرَّضُ بالإقبالِ عليه، وأصلُه: تَتصدَّى، وقرأ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ: ﴿تصَّدَّى﴾ بالإدغامِ[١]، وقُرِئَ: (تُصَدَّى)[٢]؛ أي: تُعَرَّضُ وتُدعَى إلى التَّصدِّي.

(٧) ـ ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾: وليس عليكَ بأسٌ في أَنْ لا يَتزكَّى بالإسلامِ حتى يبعثَكَ الحرصُ على إسلامِهِ إلى الإعراضِ عمَّنْ أسلمَ، إنْ عليكَ إلَّا البَلاغُ.

(٨ ـ ١٠) ـ ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾: يُسرِعُ طالِبًا للخَيرِ ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ اللهَ، أو أذيَّةَ الكُفَّارِ في إتيانِكَ، أو كبوةَ الطَّريقِ؛ لأنَّه أعمى لا قائدَ لهُ ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾: تتشاغَلُ، يقالُ: لَهِيَ عنه والْتَهَى وتَلَهَّى، ولعلَّ ذكرَ التَّصدِّي والتَّلهِّي للإشعارِ بأنَّ العِتابَ على اهتمامِ قلبِهِ بالغنيِّ وتَلهِّيه عن الفقيرِ، ومثلُه لا يَنبغي له ذلك.

(١١ ـ ١٢) ـ ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ عَن المعاتَبِ عليه أو عن[٣] مُعاودةِ مثلِه ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾: حَفِظَهُ، أو اتَّعظَ به، والضَّميرانِ للقُرآنِ أو العِتابِ المذكورِ، وتأنيثُ الأوَّلِ لتَأنيثِ خبرِه.

(١٣ ـ ١٤) ـ ﴿فِى صُحُفٍ﴾ مُثبتةٌ فيها، صفةٌ لـ﴿تَذْكِرَةٌ﴾، أو خبرٌ ثانٍ، أو خبرُ مَحذوفٍ.

﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾ عندَ اللهِ ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ القَدْرِ ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾: منزهَّةٍ عَن أيدي الشياطينِ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٧٢)، و«التيسير» (ص: ٢٢٠).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٩)، و«المحتسب» (٢/ ٣٥٢) عن أبي جعفر.

(٣) في نسخة الخيالي: «ومعاودة مثله». وأشار إلى هذا الفرق الشهاب فقال: «قوله: «أو عن معاودة مثله» إذا كان بعد انقضائه، ووقع في نسخة عطفه بالواو، والمعنى عليها أنه في الأثناء فيزجر عنه وعن معاودته، وهذه موافِقة لما في «الكشاف»، ومن قال: إن العطف تفسيري، فقد وهم. اهـ. قلت: عبارة «الكشاف» (٩/ ٤٨٢): وعن مُعاوَدة مِثلهِ.

(١٥) ـ ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾: كَتَبَةٍ مِن المَلائكةِ أو الأنبياءِ، يَنسخونَ[1] الكتبَ مِن اللوحِ أو الوحيِ، أو سفراءَ يَسْفُرونَ بالوَحيِ بينَ اللهِ ورسلِه أو الأمَّةِ؛ جمعُ سافرٍ مِن السَّفَرِ أو السِّفَارةِ، والتَّركيبُ للكشفِ يقال: سَفَرتِ المرأةُ: إذا كشَفَتْ وَجهَها.

(١٦) ـ ﴿كِرَامٍ﴾: أعزَّاءَ على اللهِ، أو متعطِّفينَ على المؤمنينَ يُكَمِّلونَهُم ويستغفرونَ لَهُم ﴿بَرَرَةٍ﴾: أتقياءَ.

(١٧) ـ ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ دعاءٌ عليهِ بأشنَعِ الدَّعواتِ، وتَعجُّبٌ مِن إفراطِه في الكُفرانِ، وهو مع قِصَرِهِ يدلُّ على سخطٍ عظيمٍ وذَمٍّ بَليغٍ.

(١٨ ـ ١٩) ـ ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ بيانٌ لِمَا أنعمَ عليهِ خصوصًا مِن مَبدَأ حُدوثِه، والاستفهامُ للتَّحقيرِ، ولذلك أجابَ عنهُ بقوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾: فهيَّأَهُ لِمَا يصلحُ له مِن الأعضاءِ والأَشكالِ، أو: فقدَّرَه أطوارًا إلى أن تمَّ خلقُه.

(٢٠) ـ ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾: ثمَّ سهَّلَ مخرجَهُ مِن بَطنِ أُمِّهِ، بأَنْ فتحَ فُوَّهةَ الرَّحمِ وألهمَهُ أَنْ ينتَكِسَ، أو ذلَّلَ له سبيلَ الخيرِ والشَّرِّ، ونُصِبَ ﴿السَّبِيلَ﴾ بفعلٍ يفسِّرُهُ الظَّاهرُ للمُبالغةِ في التَّيسيرِ، وتعريفُه باللامِ دونَ الإضافةِ للإشعارِ بأنَّه سَبيلٌ عامٌّ، وفيه على المعنى الأخيرِ إيماءٌ[2] بأنَّ الدُّنيا طريقٌ والمقصدَ غيرُها، ولذلك عقَّبَه بقوله:

(٢١ ـ ٢٢) ـ ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ وعدَّ الإماتةَ والإقبارَ في النِّعَمِ؛ لأنَّ الإماتةَ وُصلَةٌ في الجملةِ إلى الحياةِ الأبديَّةِ واللذَّاتِ الخالِصَةِ، والأمرُ بالقبرِ تكرمةٌ وصيانَةٌ عن السِّباعِ، وفي ﴿إِذَا شَاءَ﴾ إشعارٌ بأنَّ وقتَ النُّشورِ غيرُ مُتعيِّنٍ في نَفسِهِ، وإنَّما هو مَوكولٌ إلى مَشيئتِه.

---

(١) في نسخة الخيالي: «ينتسخون».

(٢) في نسخة الفاروقي: «إشعار».

(٢٣) ـ ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ للإنسانِ عمَّا هو عليهِ ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾: لم يَقْضِ بعدُ مِن لَدُن آدمَ إلى هذهِ الغايَةِ ما أمرَهُ اللهُ بأسرهِ، إذ لا يخلو أحدٌ مِن تقصيرٍ مّا.

(٢٤ ـ ٢٥) ـ ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ إتباعٌ للنِّعَمِ الذَّاتيَّةِ بالنِّعَمِ الخارجيَّةِ ﴿إِنَّا صَببْنا الماءَ صَبًّا﴾ استئنافٌ مُبيِّنٌ لكيفيَّةِ إحداثِ الطَّعامِ، وقرأَ الكوفِيُّونَ بالفَتحِ[٣] على البدلِ منه بدلَ الاشتمالِ.

(٢٦) ـ ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾؛ أي: بالنَّباتِ أو بالكِرابِ، وأَسنَدَ الشَّقَّ إلى نَفسِه إسنادَ الفعلِ إلى السَّببِ.

(٢٧ ـ ٢٨) ـ ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ كالحنطَةِ والشَّعيرِ ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ يعني: الرَّطبةَ؛ سُمِّيَتْ بمصدرِ قَضَبَهَ: إذا قَطعَهُ؛ لأنَّها تُقْضَبُ مرَّةً بعدَ أُخرَى.

(٢٩ ـ ٣٠) ـ ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾: عِظامًا، وصفَ به الحدائقَ لتكاثُفِها وكثرةِ أَشجارِها، أو لأنَّها ذاتُ أَشجارٍ غِلاظٍ، مُستعارٌ مِن وصفِ الرِّقابِ.

(٣١) ـ ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾: ومَرعًى؛ مِن أبَّ: إذا أَمَّ لأنَّه يُؤَمُّ ويُنتجَعُ، أو مِن أبَّ لكذا: إذا تهيَّأَ لَهُ؛ لأنَّه مُتهيِّئٌ للرَّعيِ، أو فاكهةً يابسةً تُؤَبُّ للشِّتاءِ.

(٣٢) ـ ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ فإنَّ الأنواعَ المذكورةَ بعضُها طعامٌ، وبعضُها عَلَفٌ.

(٣٣) ـ ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾؛ أي: النَّفخَةُ، وُصِفَتْ بها مجازًا؛ لأنَّ النَّاسَ يَصُخُّونَ لها.

(٣٤ ـ ٣٦) ـ ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ لاشتغالِه بشأنِهِ وعلمِه بأنَّهُم لا يَنفعونَهُ، أو للحذرِ مِن مُطالبَتِهم بما قصَّرَ في حقِّهم، وتأخيرُ الأحَبِّ فالأحَبِّ للمُبالغَةِ، كأنَّه قيل: يفِرُّ مِن أخيهِ، بل مِن أَبويهِ، بل مِن صاحِبَتِه وبَنِيه.

---

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٦٧٢)، و«التيسير» (ص: ٢٢٠).

(٣٧) ـ ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾: يكفيهِ في الاهتمامِ به، وقُرِئَ: (يَعنيه)[١]؛ أي: يُهِمُّهُ.

(٣٨ ـ ٣٩) ـ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾: مضيئةٌ، مِن إسفارِ الصُّبحِ ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ بما ترى مِن النَّعيمِ[٢].

(٤٠ ـ ٤٢) ـ ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾: غبارٌ وكُدورَةٌ ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾: يغشاها سَوادٌ وظُلمَةٌ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾: الذين جمعوا إلى الكفرِ الفُجورَ، ولذلك يُجمعُ إلى سَوادِ وُجوهِهِم الغُبرةُ.

قال عليهِ السَّلامُ: «مَن قرأَ سُورةَ عَبَسَ جاءَ يومَ القيامَةِ ووَجهُهُ ضاحِكٌ مُستَبْشِرٌ»[٣].

***

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٩)، و«المحتسب» (٢/ ٣٥٢)، عن ابن محيصن والزهري.

(٢) في نسخة الخيالي: «المسرة».

(٣) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٨/ ٤١٤)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٤٢٢)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. انظر: «الفوائد المجموعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(٨٠) سُورَةُ عَبَسَ مَكِّيَّة
وآياتها ثنتان وأربعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾

ذكر غير واحد من المفسرين أن رسول الله ﷺ كان يوماً يخاطب بعض عظماء قريش، وقد طمع في إسلامه. فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابن أم مكتوم، وكان ممن أسلم قديماً، فجعل يسأل رسول الله ﷺ عن شيء ويلح عليه، وود النبي ﷺ أن لو كف ساعته تلك، ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل طمعاً ورغبة في هدايته وعبس في وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه، وأقبل على الآخر، فأنزل الله تعالى، ﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى ۝ وما يدريك لعله يزكى ﴾ أي يحصل له زكاة وطهارة في نفسه، ﴿ أو يذكر فتنفعه الذكرى ﴾ أي يحصل له اتعاظ وازدجار عن المحارم. ﴿ أما من استغنى فأنت له تصدى ﴾ أي أما الغني فأنت تَعرَّض له لعله يهتدي ﴿ وما عليك ألا يزكى ﴾ أي ما أنت بمطالب به إذا لم يزك نفسه. ﴿ وأما من جاءك يسعى ۝ وهو يخشى ﴾ أي يقصدك ويؤمك ليهتدي بما تقول له، ﴿ فأنت عنه تلهّى ﴾ أي تتشاغل. ومن ههنا أمر الله تعالى رسول الله ﷺ أن لا يخص بالإنذار أحداً، بل يساوي فيه بين الشريف والضعيف، والفقير والغني، والسادة والعبيد، والرجال والنساء، والصغار والكبار، ثم الله تعالى يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة، روى الحافظ أبو يعلى عن أنس رضي الله عنه في قوله: ﴿ عبس وتولى ﴾ قال: جاء ابن أم مكتوم إلى النبي ﷺ، وهو يكلم (ابيّ بن خلف) فأعرض عنه، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ عبس وتولى ۝ أن جاءه الأعمى ﴾ فكان النبي ﷺ بعد ذلك يكرمه[1]،

---

(١) أخرجه الحافظ أبو يعلى.

وعن عائشة قالت: أنزلت ﴿عبس وتولى﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى إلى رسول الله ﷺ، فجعل يقول أرشدني. قالت: وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين قالت: فجعل النبي ﷺ يعرض عنه، ويقبل على الآخر، ويقول: «أترى بما أقول بأساً؟ فيقول: لا، ففي هذا أنزلت: ﴿عبس وتولى﴾»[1]، وهكذا ذكر غير واحد من السلف والخلف: أنها نزلت في ابن ام مكتوم، والمشهور أن اسمه عبد الله، وقوله تعالى: ﴿كلا إنها تذكرة﴾ أي هذه الوصية بالمساواة بين الناس، في إبلاغ العلم بين شريفهم ووضيعهم، وقال قتادة ﴿كلا إنها تذكرة﴾ يعني القرآن ﴿فمن شاء ذكره﴾ أي فمن شاء ذكر الله تعالى في جميع أموره، ويحتمل عود الضمير إلى الوحي لدلالة الكلام عليه، وقوله تعالى:

﴿في صحف مكرمة * مرفوعة مطهرة﴾ أي هذه السورة أو العظة ﴿في صحف مكرمة﴾ أي معظمة موقرة، ﴿مرفوعة﴾ أي عالية القدر، ﴿مطهرة﴾ أي من الدنس والزيادة والنقص، وقوله تعالى: ﴿بأيدي سفرة﴾ قال ابن عباس ومجاهد: هي الملائكة، وقال وهب بن منبه: هم أصحاب محمد ﷺ، وقال قتادة: هم القراء، وقال ابن جرير: والصحيح أن السفرة الملائكة، والسفرة يعني بين الله تعالى وبين خلقه، ومنه السفير الذي يسعى بين الناس في الصلح والخير، كما قال الشاعر:

وما أدع السفارة بين قومي وما أمشي بغش إن مشيت

وقال البخاري: سفرة: الملائكة، سفرتُ أصلحت بينهم، وجُعلت الملائكة إذا نزلت بوحي الله تعالى وتأديته كالسفير الذي يصلح بين القوم، وقوله تعالى: ﴿كرام بررة﴾ أي خَلْقهم كريم، وأخلاقهم بارة طاهرة، وفي الصحيح: «الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرؤه وهو عليه شاق له أجران»[2].

قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾

يقول تعالى ذاماً لمن أنكر البعث والنشور من بني آدم: ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾، قال ابن عباس: لعن الإنسان، وهذا الجنس الإنسان المكذب لكثرة تكذيبه ﴿ما أكفره﴾ أي ما أشد كفره، وقال ابن جرير: ويحتمل أن يكون المراد أي شيء جعله كافراً أي ما حمله على التكذيب بالمعاد؟ وقال قتادة: ﴿ما أكفره﴾ ما ألعنه، ثم بين تعالى له كيف خلقه من الشيء الحقير، وأنه قادر على إعادته كما بدأه فقال تعالى: ﴿من أي شيء خلقه؟ من نطفة خلقه فقدره﴾ أي قدّر أجله ورزقه وعمله وشقي أو سعيد ﴿ثم السبيل يسره﴾ قال ابن عباس: ثم يسر

(١) أخرجه ابن جرير وأبو يعلى.

(٢) أخرجه الجماعة عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً.

عليه خروجه من بطن أمه[1]، وقال مجاهد: هذه كقوله تعالى: ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾ أي بيناه له وأوضحناه وسهلنا عليه علمه، وهذا هو الأرجح والله أعلم، وقوله تعالى: ﴿ثم أماته فأقبره﴾ أي أنه بعد خلقه له ﴿أماته فأقبره﴾ أي جعله ذا قبر، والعرب تقول قبرت الرجل إذا ولي ذلك منه. وأقبره الله، وطردت عني فلاناً وأطرده الله، أي جعله طريداً، وقوله تعالى: ﴿ثم إذا شاء أنشره﴾ أي بعثه بعد موته، ومنه يقال البعث والنشور، عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «يأكل التراب كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه»، قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: «مثل حبة خردل منه تنشأون»[2] وهذا الحديث ثابت في الصحيحين بدون هذه الزيادة، ولفظه: «كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب»[3]، وقوله تعالى: ﴿كلا لما يقض ما أمره﴾ قال ابن جرير: يقول جل ثناؤه كلا ليس الأمر كما يقول هذا الإنسان الكافر من أنه قد أدى حق الله عليه في نفسه وماله، ﴿لمّا يقض ما أمره﴾ يقول: لم يؤد ما فرض عليه من الفرائض لربه عزّ وجلّ، عن مجاهد قال: لا يقضي أحد أبداً كل ما افترض عليه.

وقوله تعالى: ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه﴾ فيه امتنان، وفيه استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة، على إحياء الأجسام بعدما كانت عظاماً بالية وتراباً متمزقاً، ﴿أنا صببنا الماء صباً﴾ أي أنزلناه من السماء على الأرض، ﴿ثم شققنا الأرض شقاً﴾ أي أسكناه فيها فيدخل في تخومها، فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض، ﴿فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً﴾، فالحب كل ما يذكر من الحبوب، والعنب معروف، والقضب هو الفصفصة التي تأكلها الدواب رطبة، ويقال لها القت أيضاً. قال ذلك ابن عباس وقتادة، وقال الحسن البصري: القضب العلف، ﴿وزيتوناً﴾ وهو معروف، وهو أدم وعصيره أدم، ويستصبح به ويدهن به، ﴿ونخلاً﴾ يؤكل بلحاً وبسراً، ورطباً وتمراً، ونيئاً ومطبوخاً، ويعتصر منه رب وخل. ﴿وحدائق غلباً﴾ أي بساتين، قال الحسن وقتادة: غلباً نخل غلاظ كرام، وقال ابن عباس ومجاهد: كل ما التف واجتمع، وقال ابن عباس أيضاً ﴿غلباً﴾ الشجر الذي يستظل به، وقال عكرمة: ﴿غلباً﴾ أي غلاظ الأوساط، وقوله تعالى: ﴿وفاكهة وأبا﴾ أما الفاكهة فكل ما يتفكه به من الثمار، قال ابن عباس: الفاكهة كل ما أكل رطباً، والأب ما أنبت الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس، وفي رواية عنه: هو الحشيش للبهائم، وقال مجاهد: الأب الكلأ، وعن مجاهد والحسن: الأب للبهائم كالفاكهة لبني آدم، وعن عطاء كل شيء نبت على وجه الأرض فهو أب، وقال الضحاك: كل شيء أنبتته الأرض سوى الفاكهة فهو الأب. وقال العوفي، عن ابن عباس: الأب: الكلأ والمرعى. روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ ﴿عبس وتولى﴾ فلما أتى على هذه الآية: ﴿وفاكهة وأباً﴾ قال: قد عرفنا الفاكهة فما الأب؟ فقال لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف[4]، وهذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه،

---

(١) وهو قول عكرمة والضحّاك وقتادة والسدي واختاره ابن جرير.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٣) أخرجاه في الصحيحين عن أبي هريرة.

(٤) رواه ابن جرير، وإسناده صحيح كما قال ابن كثير.

وإلا فهو يعلم أنه من نبات الأرض لقوله : ﴿ فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلباً وفاكهة وأباً ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ أي عيشة لكم ولأنعامكم في هذه الدار ، إلى يوم القيامة .

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾

قال ابن عباس : ﴿ الصّاخَّةُ ﴾ اسم من أسماء يوم القيامة ، عظّمه الله وحذّره عباده ، وقال البغوي : ﴿ الصاخة ﴾ يعني يوم القيامة ، سميت بذلك لأنها تصخ الأسماع ، أي تبالغ في إسماعها حتى تكاد تصمها ، ﴿ يوم يفر المرء من أخيه ۞ وأمّه وبنيه ۞ وصاحبته وبنيه ﴾ أي يراهم ويفر منهم ؛ لأن الهول عظيم ، والخطب جليل ، قال عكرمة : يلقى الرجل زوجته فيقول لها : يا هذه أي بعل كنت لكِ ؟ فتقول : نعم البعل كنت ، وتثني بخير ما استطاعت ، فيقول لها : فإني أطلب إليك اليوم حسنة واحدة تهبيها لي لعلي أنجو مما ترين ، فتقول له : ما أيسر ما طلبت ، ولكن لا أطيق أن أعطيك شيئاً أتخوف مثل الذي تخاف ، قال : وإن الرجل ليلقى ابنه فيعلق به فيقول : يا بني أي والد كنت لك ؟ فيثني بخير ، فيقول له : يا بني إني احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك لعلي أنجو بها مما ترى فيقول ولده : يا أبتِ ما أيسر ما طلبتَ ، ولكني أتخوف مثل الذي تتخوف ، فلا أستطيع أن أُعطيك شيئاً ، يقول الله تعالى : ﴿ يوم يفر المرء من أخيه ۞ وأمّه وأبيه ۞ وصاحبته وبنيه ﴾ وفي الحديث الصحيح في أمر الشفاعة : حتى عيسى ابن مريم يقول : لا أسأله اليوم إلا نفسي ، لا أسأله مريم التي ولدتني ، عن ابن عباس قال ، قال رسول الله ﷺ : « تحشرون حفاة عراة مشاة غرلاً » قال ، فقالت زوجته : يا رسول الله ننظر أو يرى بعضنا عورة بعض قال : « لكل امرئ يومئذ شأن يغنيه » أو قال : « ما أشغله عن النظر »[1] . وروى النسائي عن عروة عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « يبعث الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً » فقالت عائشة : يا رسول الله فكيف بالعورات ؟ فقال : « لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه »[2] . وعن أنَس بن مالك قال : سألت عائشة رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله بأبي أنت وأمّي ، إني سائلتك عن حديث فتخبرني أنت به ، قال : « إن كان عندي منه علم » قالت يا نبي الله كيف يحشر الرجال ؟ قال : « حفاة عراة » ثم انتظرت ساعة ، فقالت : يا رسول الله كيف يحشر النساء ؟ قال : « كذلك حفاة عراة » ، قالت : واسوأتاه من يوم القيامة ، قال : « وعن أي ذلك تسألين إنه قد نزل علي آية لا يضرك كان عليك ثياب أو لا يكون » ، قالت : أية آية هي يا نبي الله ؟ قال : « لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه »[3] ، وقال البغوي في تفسيره . عن سودة زوج النبي ﷺ قالت ، قال رسول الله ﷺ : « يبعث الناس حفاة عراة غرلاً قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان » ، فقلت : يا رسول الله واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض ؟ فقال : قد شغل

---

(١) اخرجه ابن ابن حاتم .
(٢) انفرد به النسائي من هذه الوجه .
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم .

الناس ﴿ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾(١) . وقوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة﴾ أي يكون الناس هنالك فريقين، وجوه مسفرة أي مستنيرة﴿ ضاحكة مستبشرة﴾ أي مسرورة فرحة، قد ظهر البشر على وجوههم، وهؤلاء هم أهل الجنة، ﴿ ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قترة﴾ أي يعلوها وتغشاها ﴿ قترة﴾ أي سواد، وفي الحديث: « يلجم الكافر العرق ثم تقع الغبرة على وجوههم »، فهو قوله تعالى: ﴿ ووجوه يومئذ عليها غبرة﴾(٢) ؛ وقال ابن عباس ﴿ ترهقها قترة﴾ أي يغشاها سواد الوجوه، وقوله تعالى: ﴿ أولئك هم الكفرة الفجرة﴾ أي الكفرة قلوبهم، الفجرة في أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿ ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾ .

[آخر تفسير سورة عبس ، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) حديث غريب من هذا الوجه .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم .

تفسير سورة عبس

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦) ﴾ .

ذكر غيرُ واحد من المفسرين أن رسول الله ﷺ كان يوماً يخاطبُ بعض عظماء قريش ، وقد طَمع فى إسلامه ، فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابنُ أم مكتوم ـ وكان ممن أسلم قديما ـ فجعل يسأل رسول الله ﷺ عن شىء ويلح عليه ، ووَدّ النبى ﷺ أن لو كف ساعته تلك ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل ؛ طمعا ورغبة فى هدايته . وعَبَس فى وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه ، وأقبل على الآخر ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ . أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴾ ؟ أى : يحصل له زكاة وطهارة فى نفسه ، ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴾ أى : يحصل له اتعاظ وانزجار عن المحارم ، ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ . فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴾ أى : أما الغنى فأنت تتعرض له لعله يهتدى ، ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴾ ؟ أى : ما أنت بمطالب به إذا لم يحصل له زكاة . ﴿ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ . وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴾ أى : يقصدك ويؤمك ليهتدى بما تقول له ، ﴿ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ أى : تتشاغل . ومن هاهنا أمر الله عز وجل رسوله ﷺ ألا يخص بالإنذار أحداً ، بل يساوى فيه بين الشريف والضعيف، والفقير والغنى ، والسادة والعبيد ، والرجال والنساء ، والصغار والكبار . ثم الله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة .

قال الحافظ أبو يعلى فى مسنده : حدثنا محمد ـ هو ابن مهدى ـ حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معْمَر ، عن قتادة [عن أنس][(١)] فى قوله : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ ، جاء ابن أم مكتوم إلى النبى ﷺ وهو يكلم أبى بن خلف ، فأعرض عنه ، فأنزل الله : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ . أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴾ ، فكان النبى ﷺ بعد ذلك يكرمه .

قال قتادة : وأخبرنى أنس بن مالك قال : رأيته يوم القادسية وعليه درع ومعه راية سوداء ـ

(١) تنبيه : ما بين المعقوفين ليس فى أصل مسند أبى يعلى وتفسير عبد الرزاق . وهو من النسخ ،وأظنه مقحماً . والله أعلم .

يعنى ابن أم مكتوم [(١)] .

وقال أبو يعلى وابن جرير : حدثنا سعيد بن يحيى الأموى ، حدثنى أبى ،عن هشام بن عروة مما عرضه عليه عن عُرْوَة ، عن عائشة قالت : أنزلت : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ فى ابن أم مكتوم الأعمى ، أتى إلى رسول الله ﷺ فجعل يقول : أرشدنى . قالت : وعند رسول الله ﷺ من عظماء المشركين. قالت : فجعل النبى ﷺ يُعرض عنه ويقبل على الآخر ، ويقول : « أترى بما أقول بأسا ؟ » . فيقول: لا . ففى هذا أنزلت : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ [(٢)].

وقد روى الترمذى هذا الحديث ، عن سعيد بن يحيى الأموى ، بإسناده ، مثله ، ثم قال : وقد رواه بعضهم عن هشام بن عروة ، عن أبيه قال : أنزلَت ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ فى ابن أم مكتوم ، ولم يذكر فيه عن عائشة [(٣)].

قلت : كذلك هو فى الموطأ [(٤)] .

ثم روى ابن جرير وابن أبى حاتم أيضا من طريق العوفى ، عن ابن عباس قوله : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ . أَن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ ﴾ ، قال : بينا رسولُ الله ﷺ يناجى عتبةَ بن ربيعة ، وأبا جهل بنَ هشام ، والعباس بن عبد المطلب ــ وكان يتصدى لهم كثيرا ، ويحرص [(٥)] عليهم أن يؤمنوا ــ فأقبل إليه رجل أعمى ــ يقال له عبد الله بن أم مكتوم ــ يمشى وهو يناجيهم ، فجعل عبد الله يستقرئ النبى ﷺ آية من القرآن ، وقال : يا رسول الله ، علمنى مما علمك الله . فأعرض عنه رسول الله ﷺ ، وعبس فى وجهه ، وتولى وكَرِهَ كَلامَه ، وأقبل على الآخرين ، فلما قضى رسولُ الله ﷺ نجواه ، وأخذ ينقلب إلى أهله ، أمسك الله بعض بصره ، ثم خَفَق برأسه ،ثم أنزل الله : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ . أَن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ . أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى ﴾ . فلما نزل فيه ما نزل ، أكرمه رسول الله ﷺ وكلمه وقال له النبى ﷺ : « ما حاجتك ؟ هل تريد من شىء ؟ » وإذا ذهب من عنده قال: «هل لك حاجة فى شىء ؟ » . وذلك لما أنزل الله تعالى : ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ . فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ. وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّىٰ ﴾ [(٦)] .

فيه غرابة ونكارة ، وقد تُكُلِّم فى إسناده .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن منصور الرّمادى ، حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثنا الليث، حدثنى يونس ، عن ابن شهاب قال : قال سالم بن عبد الله ، عن عبد الله بن عمر :

(١) مسند أبى يعلى (٥/ ٤٣١) ، وتفسير عبد الرزاق (٢/ ٢٨٢) .
(٢) مسند أبى يعلى (٨/ ٢٦١) ، وتفسير الطبرى (٣٠/ ٣٢) .
(٣) سنن الترمذى برقم (٣٣٢٨) .
(٤) الموطأ (١/ ٢٠٣) .
(٥) فى أ :« ويجعل » .
(٦) تفسير الطبرى (٣٠/ ٣٢) ، ووجه غرابته ما نقله السهيلى فى الروض الأنف عن شيخه ابن العربى قال :« قول المفسرين فى الذى شغل النبى ﷺ أنه الوليد بن المغيرة ، وأمية بن خلف ، والعباس كله باطل ، فإن أمية والوليد كانا بمكة ،وابن أم مكتوم كان بالمدينة ما حضر معهما، ولا حضرا معه وماتا كافرين ، أحدهما قبل الهجرة والآخر فى بدر ، ولم يقصد أمية المدينة قط ، ولا حضر عنده مفردا ولا مع آخر » انتهى .

سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن بلالا يؤذن بليل ، فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم » . وهو الأعمى الذى أنزل الله فيه : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ . أَن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ ﴾ ، وكان يؤذن مع بلال .قال سالم : وكان رَجُلاً ضريرَ البصر ، فلم يك يؤذن حتى يقول له الناس ـــ حين ينظرون إلى بزوغ الفجر ـــ : أذِّن[١] .

وهكذا ذكر عروة بن الزبير ، ومجاهد ، وأبو مالك ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد ، وغير واحد من السلف والخلف : أنها نزلت [٢] فى ابن أم مكتوم . والمشهور أن اسمه عبد الله ، ويقال: عمرو . والله أعلم .

وقوله : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ أى : هذه السورة ، أو الوصية بالمساواة بين الناس فى إبلاغ العلم من[٣] شريفهم ووضيعهم .

وقال قتادة والسدى : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ يعنى : القرآن ، ﴿ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ أى : فمن شاء ذكر الله فى جميع أموره . ويحتمل عود الضمير على الوحى ؛ لدلالة الكلام عليه .

وقوله : ﴿ فِى صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ . مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ﴾ أى : هذه السورة أو العظة ، وكلاهما متلازم ، بل جميع القرآن ﴿ فِى صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ﴾ أى : معظمة موقرة ﴿ مَرْفُوعَةٍ ﴾ أى : عالية القدر ، ﴿مُطَهَّرَةٍ ﴾ أى : من الدنس والزيادة والنقص .

وقوله : ﴿ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴾ . قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وابن زيد : هى الملائكة.

وقال وهب بن منبه : هم أصحاب محمد ﷺ ،وقال قتادة : هم القراء . وقال ابن جريج ، عن ابن عباس : السفرة بالنبطية : القراء .

وقال ابن جرير : الصحيح أن السفرة الملائكة ، والسفرة يعنى بين الله وبين خلقه ، ومنه يقال: السفير : الذى يسعى بين الناس فى الصلح والخير ، كما قال الشاعر :

وَما أَدَعُ السِّفَارَةَ بَين قَومى   وَما أَمْشى بغش إن مَشَيتُ [٤]

وقال البخارى : سَفَرَةٌ : الملائكة . سَفرت : أصلحت بينهم . وجعلت الملائكةُ إذا نَزلت بوَحْى الله وتأديته كالسفير الذى يصلح بين القوم[٥] .

وقوله : ﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ أى : خُلقهم كريم حَسَنٌ شريف ، وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة . ومن هاهنا ينبغى لحامل القرآن أن يكون فى أفعاله وأقواله على السداد والرشاد .

قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا هشام ، عن قتادة ، عن زُرَارة بن أوفى ، عن سعد ابن هشام ، عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « الذى يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السَّفَرَة الكرام البَرَرَة ، والذى يقرؤه وهو عليه شاق له أجران » .

---

(١) أصل الحديث فى صحيح مسلم برقم (١٠٩٢) .

(٢) فى م : «أنها أنزلت » .   (٣) فى أ : « بين » .

(٤) تفسير الطبرى (٣٠/ ٣٥) .

(٥) صحيح البخارى (٨/ ٦٩١) « فتح » .

أخرجه الجماعة من طريق قتادة ، به [١] .

﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (٢٢) كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣) فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ (٣٢) ﴾ .

يقول تعالى ذاماً لمن أنكر البعث والنشور من بنى آدم : ﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ . قال الضحاك، عن ابن عباس : ﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ ﴾ : لعن الإنسان . وكذا قال أبو مالك . وهذا لجنس الإنسان المكذب ؛ لكثرة تكذيبه بلا مستند ،بل بمجرد الاستبعاد وعدم العلم .

قال ابن جرير [٢] : ﴿ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ : ما أشد كفره ! وقال ابن جرير : ويحتمل أن يكون المراد : أى شىء جعله كافراً ؟ أى : ما حمله على التكذيب بالمعاد [٣] .

وقال قتادة ــ وقد حكاه البغوى عن مقاتل والكلبى ــ : ﴿ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ : ما ألعنه .

ثم بين تعالى له كيف خلَقه الله من الشىء الحقير ،وأنه قادر على إعادته كما بدأه ، فقال: ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ . مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ أى : قدر أجله ورزقه وعمله وشقى أو سعيد . ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ ، قال العوفى ، عن ابن عباس : ثم يسر عليه خروجه من بطن أمه . وكذا قال عكرمة ، والضحاك ، وأبو صالح ، وقتادة ، والسدى ، واختاره ابن جرير [٤] .

وقال مجاهد : هذه كقوله : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان:٣] أى : بيّنا [٥] له ووَضّحناه وسَهلنا عليه علمه [٦]، وهكذا قال الحسن ، وابن زيد .وهذا هو الأرجح ،والله أعلم.

وقوله : ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ أى : إنه بعد خلقه له ﴿ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ أى : جعله ذا قبر . والعرب تقول : « قبرتُ الرجل » : إذا وَلى ذلك منه ، وأقبره الله . وعَضبتُ قرن الثور ، وأعضبه الله ، وبترت ذنب البعير وأبتره الله . وطردت عنى فلاناً ، وأطرده الله ، أى : جعله طريدا ، قال الأعشى:

لَو أسْنَدَتْ مَيتاً إلى نَحْرِها[٧] عَاش ، ولَم يُنقَل إلى قَابِرِ [٨]

(١) المسند (٦/٤٨) وصحيح البخارى برقم (٤٩٣٧) وصحيح مسلم برقم (٧٩٨) وسنن أبى داود برقم (١٤٥٤) وسنن الترمذى برقم (٢٩٠٤) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٤٧) وسنن ابن ماجة برقم (٣٧٧٩).

(٢) فى أ:« ابن جريج » .

(٣) تفسير الطبرى (٣٠/ ٣٥) ، وقد تصرف الحافظ هنا فى كلامه .

(٤) تفسير الطبرى(٣٠/ ٣٦) .

(٥) فى أ :« أى بيناه » .

(٦) فى أ:« عمله » .

(٧) فى م ، أ :« إلى صدرها» .

(٨) البيت فى تفسير الطبرى (٣٠/ ٣٦) .

وقوله : ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴾ أى : بعثه بعد موته ، ومنه يقال : البعث والنشور ، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠] ، ﴿ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ [البقرة: ٢٥٩] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أصبغُ بنُ الفَرج ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنى عمرو بن الحارث : أن دراجا أبا السمح أخبره ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد ، عن النبى ﷺ قال : « يأكل الترابُ كلَّ شىء من الإنسان إلا عَجْبُ ذَنَبه (١) » . قيل : وما هو يا رسول الله ؟ قال : « مثل حبة خردل منه ينشؤون » (٢) .

وهذا الحديث ثابت فى الصحيح من رواية الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ، بدون هذه الزيادة ، ولفظه : « كل ابن آدم يَبْلى إلا عَجْبُ الذَّنَب ، منه خلق وفيه يُركَّب »(٣) .

وقوله : ﴿ كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ ، قال ابن جرير : يقول : كلا ، ليس الأمر كما يقول هذا الإنسان الكافر ؛ من أنه قد أدى حق الله عليه فى نفسه وماله ، ﴿ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ يقول : لم يُؤد ما فُرض عليه من الفرائض لربه عز وجل .

ثم روى ــ هو وابن أبى حاتم ــ من طريق ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد قوله : ﴿ كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ قال : لا يقضى أحد أبدا كل ما افتُرض عليه . وحكاه البغوى ، عن الحسن البصرى، بنحو من هذا . ولم أجد للمتقدمين فيه كَلاماً سوى هذا . والذى يقع لى فى معنى ذلك ــ والله أعلم ــ أن المعنى : ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴾ أى : بعثه ،﴿ كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ [أى] (٤) : لا يفعله الآن حتى تنقضى المدة،ويفرغ القدر من بنى آدم ممن كتب تعالى(٥) له أن سيُوجَدُ منهم،ويخرج إلى الدنيا ، وقد أمر به تعالى كونا وقدرا ، فإذا تناهى ذلك عند الله أنشر الله الخلائق وأعادهم كما بدأهم .

وقد روى ابنُ أبى حاتم ، عن وهب بن مُنَبّه قال : قال عُزَير ، عليه السلام : قال الملك الذى جاءنى : فإن القبور هى بطنُ الأرض ، وإن الأرض هى أم الخلق ، فإذا خلق الله ما أراد أن يخلق ، وتمت هذه القبورُ التى مَدّ الله لها ، انقطعت الدنيا ومات من عليها ، ولفظت الأرض ما فى جوفها ، وأخرجت القبورُ ما فيها ، وهذا شبيه بما قلناه من معنى الآية ، والله ــ سبحانه وتعالى ــ أعلم بالصواب .

وقال(٦) : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴾ : فيه امتنان ، وفيه استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة على إحياء الأجسام بعد ما كانت عظاما بالية وترابا متمزقا ،﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴾ أى : أنزلناه من السماء على الأرض ، ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ﴾ أى : أسكناه فيها فَدَخل فى تُخُومها وتَخَلّل فى

---

(١) فى أ:« إلا عجز الذنب » .

(٢) ورواه الحاكم فى المستدرك (٤/٦٠٩) من طريق بحر بن نصر ، عن ابن وهب به ، وقال :« حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه »
قلت: دراج عن أبى الهيثم ضعيف .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٨١٤)، وصحيح مسلم برقم (٢٩٥٥) .

(٤) زيادة من م ، أ. (٥) فى م :« ممن كتب الله » . (٦) فى أ :« وقوله » .

أجزاء الحب المودَع فيها ، فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض ، ﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا . وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴾، فالحب : كل ما يذكر من الحبوب ، والعنب معروف ، والقضب هو : الفِصْفِصة التى تأكلها الدواب رطبة . ويقال لها : القَتّ أيضا . قال ذلك ابن عباس ،وقتادة ،والضحاك ، والسدى .

وقال الحسن البصرى : القضب : العلف .

﴿ وَزَيْتُونًا ﴾ : وهو معروف ، وهو أُدْمٌ وعصيره أدم ، ويستصبح به ، ويدهن به . ﴿وَنَخْلًا ﴾ يؤكل بلحا بسرا ، ورطبا ، وتمرا ، ونيئا ، ومطبوخا ،ويعتصر منه رُبٌّ وخل . ﴿ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴾ أى: بساتين . قال الحسن ، وقتادة : ﴿ غُلْبًا ﴾ : نخل غلاظ كرام . وقال ابن عباس ، ومجاهد : «الحدائق» : كل ما التف واجتمع . وقال ابن عباس أيضاً : ﴿ غُلْبًا [١] ﴾: الشجر الذى يستظل به. وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴾ أى : طوال . وقال عكرمة : ﴿غُلْبًا﴾ أى : غلاظ الأوساط . وفى رواية : غلاظ الرقاب [٢]، ألم تر إلى الرجل إذا كان غليظ الرقبة قيل: والله إنه لأغلب . رواه ابن أبى حاتم ، وأنشد ابن جرير للفرزدق :

عَوَى فَأثَارَ أغلبَ ضَيْغَمِياً فَويلَ ابن المَراغَة ما استَثَارا [٣]

وقوله : ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ : أما الفاكهة فهو ما يتفكه به من الثمار . قال ابن عباس : الفاكهة : كل ما أكل رطبا . والأبّ ما أنبتت الأرض ، مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس ــ وفى رواية عنه : هو الحشيش للبهائم . وقال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وأبو مالك : الأب : الكلأ . وعن مجاهد، والحسن ، وقتادة ، وابن زيد : الأب للبهائم كالفاكهة لبنى آدم . وعن عطاء : كل شىء نبت على وجه الأرض فهو أبٌّ . وقال الضحاك : كل شىء أنبتته الأرض سوى الفاكهة فهو أبٌّ.

وقال ابن إدريس ، عن عاصم بن كليب ، عن أبيه ، عن ابن عباس : الأب : نبت الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس . ورواه ابن جرير من ثلاث طرق ، عن ابن إدريس ، ثم قال : حدثنا أبو كُرَيْب وأبو السائب قالا : حدثنا ابن إدريس ،حدثنا عبد الملك ، عن سعيد بن جبير قال : عدّ ابن عباس وقال : الأب : ما أنبتت الأرض للأنعام .هذا لفظ أبى كريب ، وقال أبو السائب : ما أنبتت الأرض مما يأكل الناس وتأكل الأنعام .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : الأب : الكلأ والمرعى . وكذا قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة، وابن زيد ، وغير واحد .

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : حدثنا محمد بن يزيد ، حدثنا العوام بن حَوشَب ، عن إبراهيم التَّيمى قال : سُئِلَ أبو بكر الصديق ، رضى الله عنه ، عن قوله تعالى : ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ فقال : أى سماء تظلنى ، وأى أرض تقلنى إن قلتُ فى كتاب الله ما لا أعلم [٤] .

---

(١) فى م :« الغلب » . (٢) فى م :« الأرقاب » .
(٣) تفسير الطبرى (٣٠/ ٣٧) .
(٤) فضائل القرآن لأبى عبيد (ص٢٢٧) ، وسبق الكلام عليه فى مقدمة التفسير .

وهذا منقطع بين إبراهيم التيمي والصديق . فأما ما رواه ابن جرير حيث قال :

حدثنا ابن بشار ، حدثنا ابن أبي عدي ، حدثنا حُمَيد ، عن أنس قال : قرأ عمر بن الخطاب ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾ ،فلما أتي على هذه الآية : ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ قال : عرفنا ما الفاكهة ، فما الأب ؟ فقال: لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف (١).

فهو إسناد صحيح ، وقد رواه غير واحد عن أنس ، به . هو محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه ، وإلا فهو وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض ، لقوله : ﴿ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا . وَعِنَبًا وَقَضْبًا . وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً . وَحَدَائِقَ غُلْبًا . وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ .

وقوله : ﴿ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ أي : عيشة لكم ولأنعامكم فى هذه الدار إلى يوم القيامة .

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢) ﴾ .

قال ابن عباس : ﴿ الصَّاخَّةُ ﴾ : اسم من أسماء يوم القيامة ، عظمه الله ، وحَذّره عباده .

قال ابن جرير : لعله اسم للنفخة فى الصور . وقال البَغَوِىّ : ﴿ الصَّاخَّةُ ﴾ : يعنى صيحة القيامة؛ سميت بذلك لأنها تَصُخّ الأسماع ، أى : تبالغ فى إسماعها حتى تكاد تُصمّها (٢) .

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ أى : يراهم ، ويفر منهم ، ويبتعد عنهم؛ لأن الهول عظيم ، والخطب جليل .

قال عكرمة : يلقى الرجل زوجته فيقول لها : يا هذه ، أىّ بعل كنتُ لك ؟ فتقول : نعم البعل كنتَ ! وتثنى بخير ما استطاعت ، فيقول لها : فإنى أطلبُ إليك اليومَ حسنةً واحدةً تهبينها (٣) لى لعلى أنجو مما ترين . فتقول له : ما أيسر ما طلبتَ ، ولكنى لا أطيق أن أعطيك شيئا أتخوف مثل الذى تخاف . قال : وإن الرجل ليلقى ابنه فيتعلق به فيقول : يا بنى ، أىّ والد كنتُ لك ؟ فيثنى بخير . فيقولُ له : يا بنى ، إنى احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك لعلى أنجو بها مما ترى . فيقول ولده : يا أبت ، ما أيسر ما طلبت ، ولكنى أتخوف مثل الذى تتخوف ، فلا أستطيع أن أعطيك شيئا. يقول الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ .

وفى الحديث الصحيح ــ فى أمر الشفاعة ــ : أنه إذا طلب إلى كل من أولى العزم أن يشفع عند الله فى الخلائق ، يقول : نفسى نفسى ، لا أسأله اليوم إلا نفسى ، حتى إن عيسى ابن مريم يقول :

---

(١) تفسير الطبرى (٣٠/٣٨) ، ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (٧/ ١٨٠) من طريق يزيد به ، وتقدم الكلام عليه فى مقدمة التفسير .
(٢) فى أ: « تصخها » . (٣) فى أ :« تهبيها » .

لا أسأله اليومَ إلا نفسى ، لا أسأله مريم التى ولدتنى . ولهذا قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيه. وَأُمِّهِ وَأَبِيه. وَصَاحِبَتِه وَبَنِيه ﴾ (١).

قال قتادة : الأحب فالأحبَ ، والأقرب فالأقربَ ، من هول ذلك اليوم .

وقوله : ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيه ﴾ أى : هو فى شُغُل شاغل عن غيره .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عمار بن الحارث ، حدثنا الوليد بن صالح ، حدثنا ثابت أبو زيد العبادانى ، عن هلال بن خَبَّاب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ: « تحشرون حفاة عراة مشاة غُرلاً » . قال : فقالت زوجته : يا رسول الله ، أوَ يرى (٢) بعضنا عورة بعض ؟ قال : « ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيه ﴾ » . أو قال : « ما أشغله عن النظر » .

وقد رواه النسائى منفردا به ، عن أبى داود ، عن عارم ، عن ثابت بن يزيد ــ وهو أبو زيد الأحول البصرى ، أحد الثقات ــ عن هلال بن خَبَّاب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، به(٣) . وقد رواه الترمذى عن عَبد بن حُمَيد ، عن محمد بن الفضل ، عن ثابت بن يزيد ، عن هلال ابن خَبَّاب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ قال : « تُحشَرون حُفاة عُرَاة غُرْلاً » . فقالت امرأة : أيبصر ــ أو : يرى ــ بعضنا عورة بعض ؟ قال : « يا فلانة ، ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيه ﴾ » (٤) . ثم قال الترمذى : وهذا حديث حسن صحيح ، وقد روى من غير وجه عن ابن عباس ، رضى الله عنه (٥).

وقال النسائى : أخبرنى عمرو بن عثمان ، حدثنا بَقِيَّة ، حدثنا الزبيدى ، أخبرنى الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة ، أن رسول الله ﷺ قال : « يبعث الناس يوم القيامة حفاة عراة غُرلا » . فقالت عائشة : يا رسول الله ، فكيف بالعورات ؟ فقال : « ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيه ﴾ » (٦).

انفرد به النسائى من هذا الوجه .

ثم قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أزهر بن حاتم ، حدثنا الفضل بن موسى ، عن عائذ ابن شُرَيح ، عن أنس بن مالك قال : سألت عائشة ، رضى الله عنها ، رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، بأبى أنت وأمى ، إنى سائلتك عن حديث فتخبرنى أنتَ به . فقال : « إن كان عندى منه علم » . قالت : يا نبى الله ، كيف يُحشر الرجال ؟ قال : « حفاة عراة » . ثم انتظَرتْ ساعة فقالت : يا نبى الله ، كيف يحشر النساء ؟ قال : « كذلك حفاة عراة » . قالت : واسوأتاه من يوم القيامة ! قال : «وعن أى ذلك تسألين؟ إنه قد نزل على آية لا يضرك كان عليك ثياب أو لا يكون ».

---

(١) أحاديث الشفاعة سبقت عند تفسير أول سورة الإسراء .

(٢) فى م :« يا رسول الله ، ننظر أو يرى » .

(٣) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٤٧) .

(٤) سنن الترمذى برقم (٣٣٣٢) .

(٥) فى أ :« رضى الله تعالى عنهما » .

(٦) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٤٨) .

قالت : أيةُ آية هي يا نبي الله ؟ قال : « ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ » [(١)] .

وقال البغوى فى تفسيره : أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشّريحى ، أخبرنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبى ، أخبرنى الحسين بن عبد الله ، حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن ، حدثنا محمد بن عبد العزيز ، حدثنا ابن أبى أويس ، حدثنا أبى ، عن محمد بن أبى عياش ، عن عطاء بن يسار ، عن سودة زوج النبى ﷺ قالت : قال رسول الله ﷺ : « يبعث الناس حفاة عراة غُرلا قد ألجمهم العرق، وبلغ شحوم الآذان » . فقلت : يا رسول الله ، واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض ؟ فقال : «قد شُغل الناس ، ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ » [(٢)] .

هذا حديث غريب من هذا الوجه جدا ، وهكذا رواه ابن جرير عن أبى عمار الحسين بن حريث المروزى ، عن الفضل بن موسى ، به[(٣)] . ولكن قال أبو حاتم الرازى : عائذ بن شريح ضعيف ، فى حديثه ضعف [(٤)].

وقوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ أى : يكون الناس هنالك فريقين : ﴿ وُجُوهٌ مُّسْفِرَةٌ ﴾ أى : مستنيرة ، ﴿ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ أى : مسرورة فرحة من سرور قلوبهم ، قد ظهر البشر على وجوههم ، وهؤلاء أهل الجنة . ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ . تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ أى : يعلوها ويغشاها [(٥)] قترة ، أى : سواد .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا سهل بن عثمان العسكرى ، حدثنا أبو على محمد مولى جعفر بن محمد ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « يلجم الكافرَ العرقُ ثم تقع الغُبْرة على وجوههم » . قال : فهو قوله : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ [(٦)] .

وقال ابن عباس : ﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ أى : يغشاها سواد الوجوه .

وقوله : ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ أى : الكفرة قلوبهم ، الفجرة فى أعمالهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح:٢٧] .

آخر تفسير سورة « عبس » ولله الحمد والمنة

(١) ورواه الطبرى فى تفسيره (٣٠/ ٣٩) ، عن الحسين بن حريث عن الفضل بن موسى به .

(٢)معالم التنزيل للبغوى (٨/ ٣٤٠) ، ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٥١٤) من طريق إسماعيل بن إسحاق ، عن إسماعيل بن أبى أويس به نحوه . وقال :« هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه بهذا اللفظ» .

(٣) تفسير الطبرى (٣٠/ ٣٩) .

(٤) الجرح والتعديل لابن أبى حاتم (٧/ ١٦) .

(٥) فى م :« تعلوها وتغشاها » .

(٦) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٨/ ٤٢٤) ، وله شاهد من حديث ابن مسعود : رواه ابن حبان فى صحيحه برقم (٢٥٨٢) «موارد» من طريق شريك ،عن أبى إسحاق ، عن أبى الأحوص ، عن ابن مسعود مرفوعا :« إن الكافر ليلجمه العرق يوم القيامة فيقول : أرحنى ولو إلى النار » .

سورة عبس

مكيّة، وهي إحدى وأربعون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ رُوي أنّ ابن أمّ مكتوم -واسمه عبد الله بن شُريح بن مالك بن أبي ربيعةَ الفِهري، وأمّ مكتوم اسم أمّ أبيه- أتى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعنده صناديدُ قريشٍ عتبةُ وشيبةُ بنا ربيعةَ وأبو جهل بن هشام والعبّاس بن عبد المطّلب وأميّةُ بن خَلَف[1] والوليد بن المغيرة، يدعوهم إلى الإسلام رجاءَ أن يُسلم بإسلامهم غيرهم، فقال له: «يا رسول الله، أقرئني وعلِّمني ممّا علّمك الله تعالى»، وكرّر ذلك وهو لا يعلَم تشاغله عليه السلام بالقوم، فكَرِه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قَطْعَه لكلامه وعبَس وأعرَض عنه، فنزلت.[2] فكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يُكرمه ويقول إذا رآه: «مرحبًا بمَن عاتبني فيه ربّي»، ويقول له: «هل لك مِن حاجة؟»، واستخلَفه على المدينة مرّتين.[3] وقُرئ: "عَبَّسَ"[4] بالتشديد للمبالغة.

---

[1] هو أُميّة بن خلف بن وهب مِن بني لؤيّ (ت. ٢هـ/٦٢٤م). أحد جبابرة قريش في الجاهليّة ومِن ساداتهم. أدرك الإسلام ولم يُسلم. هو الذي عذّب بلالًا الحبشي في بداءة ظهور الإسلام، أسَرَه عبد الرحمن بن عوف يوم بدر فرآه بلال فصاح يحرّض الناس على قتله فقتلوه. انظر: الأعلام للزركلي، ٢٢/٢.

[2] مرويّ بمعناه عن عائشة وابن عبّاس ومجاهد وقتادة في جامع البيان للطبري، ١٠٢/٢٤-١٠٤؛ وبلا عزو في معالم التنزيل للبغوي، ٣٣٥/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٢٦/٤.

[3] كلُّه في معالم التنزيل للبغوي، ٣٣٥/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٢٦/٤؛ وبعضه في جامع البيان للطبري، ١٠٤/٢٤.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ وأبي عمران الجوني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٣.

و﴿أَن جَآءَهُ﴾ علّة لـ﴿تَوَلَّىٰٓ﴾ أو ﴿عَبَسَ﴾ على اختلاف الرأيين،[١] أي: لأنْ جاءه الأعمى.

[٢٧٠ظ] والتعرّض لعنوان عَماه إمّا لتمهيد عُذره في الإقدام / على قَطْع كلامه عليه السلام بالقوم والإيذان باستحقاقه بالرِّفق والرأفة، وإمّا لزيادة الإنكار، كأنّه قيل: تولّى لكونه أعمى. كما أنّ الالتفات في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ لذلك، فإنّ المشافهة أدخَلُ في تشديد العِتاب، أي: وأيّ شيء يجعلك داريًا بحاله حتّى تُعرِض عنه.

وقوله تعالى:[٢] ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ استئناف وارد لبيان ما يلوِّح به ما قبله، فإنّه مع إشعاره بأنّ له شأنًا منافيًا للإعراض عنه خارجًا عن دِراية الغير وإدْرائه مؤذِنٌ بأنّه تعالى يُدريه ذلك، أي: لعلّه يتطهَّر بما يقتبس منك مِن أوضار الأوزار بالكلّيّة. وكلمة ﴿لَعَلَّ﴾ مع تحقّق التزكّي واردةٌ على سَنن الكبرياء، أو على اعتبار معنى الترجّي بالنسبة إليه عليه السلام للتنبيه على أنّ الإعراض عنه عند كونه مرجوّ التزكّي ممّا لا يجوز، فكيف إذا كان مقطوعًا بالتزكّي؟ كما في قولك: "لعلّك ستندم على ما فعلتَ". وفيه إشارةٌ إلى أنّ مَن تصدّى لتزكيتهم مِن الكفَرة لا يُرجى منهم التزكّي والتذكّر أصلًا.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ عطفٌ على ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾ داخلٌ معه في حُكم الترجّي.

وقوله تعالى: ﴿فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ بالنصب على جواب ﴿لَعَلَّ﴾. وقُرئ بالرفع[٣] عطفًا على ﴿يَذَّكَّرُ﴾، أي: أو يتذكَّر فتنفعه موعظتك إن لم يبلغ درجة التزكّي التامّ. وقيل: الضمير في ﴿لَعَلَّهُۥ﴾ للكافر،[٤] فالمعنى أنّك طمِعت في أن يتزكّى أو يذكَّر فتُقرِّبه الذكرى إلى قَبول الحقّ، ولذلك تولَّيت عن الأعمى، وما يدريك أن ذلك مرجّوُ الوقوع.

﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ أي: عن الإيمان وعمّا عندك مِن العلوم والمعارف التي ينطوي عليها القرآن.

---

[١] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٧/٤.

[٢] س – تعالى.

[٣] قرأ بها العشرة إلّا عاصمًا. النشر لابن الجزري، ٣٩٨/٢.

[٤] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٧/٤.

﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ أي: تتصدّى وتتعرّض بالإقبال عليه والاهتمام بإرشاده واستصلاحه. وفيه مزيدُ تنفير له عليه السلام عن مصاحبتهم، فإنّ الإقبال على المُدبِر ليس مِن شِيم الكِرام. وقُرئ: "تَصَّدَّى"[١] بإدْغام "التاء" في "الصاد". وقُرئ: "تُصَدَّى"[٢] بضمّ "التاء"، أي: تُعرَّض، ومعناه يدعوك إلى التصدّي له داعٍ مِن الحرص والتهالُك على إسلامه.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ وليس عليك بأس في أن لا يتزكّى بالإسلام حتّى تهتمّ بأمره وتُعرِضَ عمّن أسلم. والجملة حال مِن ضمير ﴿تَصَدَّىٰ﴾. وقيل: ﴿مَا﴾ استفهاميّة للإنكار،[٣] / أي: أيُّ شيء عليك في ألّا يتزكّى، ومآله النفيُ أيضًا. [٢٧١و]

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾ أي: حالَ كونه مُسرِعًا طالبًا لِما عندك مِن أحكام الرُّشد وخصالِ الخير.

﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ أي: الله تعالى. وقيل: يخشى أذيّة الكفّار في إتيانك. وقيل: يخشى الكَبوَة إذ لم يكن معه قائدٌ.[٤] والجملة حال مِن فاعل ﴿يَسْعَىٰ﴾، كما أنّه حال مِن فاعل ﴿جَآءَكَ﴾.

﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ تتشاغل. يقال: "لهى عنه والتَهى وتلهّى". وقُرئ: "تَتَلَهَّى"،[٥] و"تُلَهَّى"،[٦] أي: يُلهِّيك شأن الصناديد. وفي تقديم ضميره عليه السلام على الفعلين تنبيهٌ على أنّ مَناط الإنكار خصوصيّته عليه السلام، أي: مثلك خصوصًا لا ينبغي أن يتصدّى للمستغني ويتلهّى عن الفقير الطالب للخير.

وتقديمُ ﴿لَهُۥ﴾ و﴿عَنْهُ﴾ للتعريض باهتمامه عليه السلام بمضمونهما.

رُوي أنّه صلّى الله عليه وسلّم ما عبَس بعد ذلك في وجه فقير قطّ ولا تصدّى لغنيّ.[٧]

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٩٨/٢.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي جعفر محمّد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٣.
٣ لم أقف على هذا القول فيما بين يديّ مِن المظانّ.
٤ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٧/٤.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وطلحة بن مصرف. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٣.
٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي جعفر محمّد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٣.
٧ ما وقفت عليه في مظانّه. وهو في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٧/٤.

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۝١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ۝١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ۝١٦﴾

﴿كَلَّآ﴾ ردع له صلّى الله عليه وسلّم عمّا عُوتب عليه مِن التصدّي لمَن استغنى عمّا دعاه إليه مِن الإيمان والطاعة وما يُوجبهما مِن القرآن الكريم، مبالِغًا في الاهتمام بأمره، متهالِكًا على إسلامه معرِضًا بسبب ذلك عن إرشاد مَن يسترشده.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾ أي: موعظة يجب أن يُتّعَظ بها ويُعمَل بموجَبها، تعليلٌ للردع عمّا ذُكر ببيان علوّ رُتبة القرآن العظيم الذي استغنى عنه مَن تصدّى عليه السلام[١] له، وتحقيقُ أنّ شأنه أن يكون موعظةً حقيقةً بالاتّعاظ بها، فمَن رغِب فيها اتّعظ بها، كما نطق به قولُه تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي: حَفِظَه واتّعظَ به ومَن رغِب عنها كما فعله المستغني فلا حاجةَ إلى الاهتمام بأمره، فالضميران للقرآن، وتأنيث الأوّل لتأنيث خبره.

وقيل: الأوّل للسورة، أو للآيات السابقة، والثاني للتذكرة والتذكير؛ لأنّها في معنى الذِّكر والوعظ.[٢] وليس بذلك؛ فإنّ السورة والآياتِ وإن كانت متّصفةً بما سيأتي مِن الصفات الشريفة، لكنّها ليست ممّا أُلقيَ على مَن استغنى عنه واستحقّ بسبب ذلك ما سيأتي مِن الدعاء عليه والتعجّبِ مِن كفره المُفرِط، لنزولها بعد الحادثة.

وأمّا مَن جوّز رجوعَهما إلى العِتاب المذكور،[٣] فقد أخطأ وأساء الأدبَ وخبط خبطًا يُقضى منه العجبُ. فتأمّلْ وكنْ على الحقّ المُبين.

وقوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٖ﴾ متعلِّق بمضمر هو صفة لـ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾، وما بينهما اعتراضٌ جيء به للترغيب فيها والحثّ على حِفْظها، أي: كائنة في صُحُف مُنتسَخة مِن اللوح، أو خبر ثان لـ﴿إِنَّ﴾. ﴿مُّكَرَّمَةٖ﴾ عند الله عزّ وجلّ.

﴿مَّرۡفُوعَةٖ﴾ أي: في السماء السابعة، أو مرفوعةِ المقدار والذِّكر ﴿مُّطَهَّرَةِۭ﴾ منزّهةٍ عن مساس أيدي الشياطين.

---

١ س - عليه السلام.

٢ القول في اللباب لابن عادل، ٢٠/١٥٨-١٥٩.

٣ جوّز ذلك الطِّيبي في فتوح الغيب، ١٦/٢٩٦.

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ أي: كَتَبة مِن الملائكة عليهم السلام[١] ينتسِخون الكتب مِن اللوح على أنّه جَمْع "سافر" مِن "السَّفْر"، وهو الكتب. وقيل: بأيدي رسُل مِن الملائكة يُسفِرون بالوحي بينه تعالى وبين الأنبياء على أنّه جمع "سفير" مِن "السِّفَارة".[٢] وحَمْلُهم على الأنبياء عليهم السلام[٣] بعيدٌ؛ فإنّ وظيفتَهم التلقّي مِن الوحي لا الكَتْبُ منه، وإرشادُ الأمّة بالأمر والنّهي وتعليم الشرائع والأحكام لا مجرَّد السِّفارةِ إليهم. وكذا حَمْلُهم على القرّاء لقراءتهم الأسفار، أو على أصحابه صلّى الله عليه وسلّم.[٤] وقد قالوا: هذه اللفظة مختصّة بالملائكة لا تكاد تُطلَق / على غيرهم،[٥] وإن جاز الإطلاق بحسَب اللغة. [٢٧١ظ]

و"الباء" متعلّقة بـ﴿مُطَهَّرَةٍ﴾. قال القفّال: لمّا لم يمسّها إلّا الملائكة المطهَّرون أضيفَ التطهيرُ إليها لطهارة مَن يَمسُّها.[٦] وقال القُرطبي: إنّ المراد بما في قوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة، ٧٩/٥٦] هؤلاء السَّفَرة الكرام البَرَرة.[٧]

﴿كِرَامٍ﴾ عند الله عزّ وجلّ، أو متعطِّفين على المؤمنين يكمِّلونهم ويستغفرون لهم ﴿بَرَرَةٍ﴾ أتقياء. وقيل: مُطيعين لله تعالى، مِن قولهم: "فلان يَبَرّ خالقه"، أي: يُطيعه. وقيل: صادقين مِن "بَرّ في يمينه".[٨]

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾
ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ
﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾
فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا
﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾

---

١ س - عليهم السلام.

٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٩٩/٣-٥٠٠.

٣ كما في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٧/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٩٩/٣.

٤ هذان الوجهان في جامع البيان للطبري، ١٠٨/٢٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٢٧/٤.

٥ انظر: جامع البيان للطبري، ١٠٨/٢٤؛ واللباب لابن عادل، ١٥٩/٢٠.

٦ نقله عن القفّال ابن عادل في اللباب، ١٦٠/٢٠.

٧ انظر: تفسير القرطبي، ٢٢٥/١٧؛ ونقله عنه ابن عادل في اللباب، ١٦٠/٢٠.

٨ الوجهان في اللباب لابن عادل، ١٥٩/٢٠-١٦٠.

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ دعاء عليه بأشنع الدعوات.

وقوله تعالى: ﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ تعجُّب مِن إفراطه في الكفران وبيانٌ لاستحقاقه للدعاء عليه. والمراد به إمّا مَن استغنى عن القرآن الكريم الذي ذُكرت نُعوته الجليلة الموجِبة للإقبال عليه والإيمان به، وإمّا الجنسُ باعتبار انتظامه له ولأمثاله مِن أفراده لا باعتبار جميع أفراده. وفيه مع قِصَر مَتْنه وتقارُب قُطرَيه مِن الإنباء عن سخط عظيم ومذمَّة بالغة ما لا غايةَ وراءه.

وقوله تعالى: ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ شروع في بيان إفراطه في الكفران بتفصيل ما أفاض عليه مِن مبدأ فطرته إلى منتهى عمره مِن فنون النِّعَم الموجِبة لقضاء حقّها بالشكر والطاعة مع إخلاله بذلك. وفي الاستفهام مِن مَبدأ خلقه ثمّ بيانِه بقوله تعالى: ﴿مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾ تحقيرٌ له، أي: مِن أيّ شيء حقير مَهين خلقه، مِن نطفة مَذِرة خَلَقه، ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ فهيّأه لِمَا يصلح له ويليق به مِن الأعضاء والأشكال، أو فقدّره أطوارًا إلى أن تمّ خَلْقه.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ منصوب بمضمَر يفسِّره الظاهر، أي: ثمّ سهَّل مَخرَجه مِن البطن بأن فتح فمَ الرَّحِم وألهمه أن ينتكِس، أو يسَّر له سبيل الخير والشرّ، ومكَّنه مِن السلوك فيهما. وتعريف ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ بـ"اللام" دون الإضافة للإشعار بعمومه.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ﴾ أي: جَعَله ذا قبر يُوارى فيه تكرمةً له، ولم يَدَعه مطروحًا على وجه الأرض جَزَرًا للسِّباع والطير[1] كسائر الحيوان، يقال: "قَبَر الميّتَ" إذا دفَنه، و"أقبَرهُ" إذا أمر بِدفنِه أو مكَّن منه.[2] وعَدُّ الإماتة مِن النِّعَم لأنّها / وُصلة في الجملة إلى الحياة الأبديّة والنَّعيم المُقيم. [٢٧٢و]

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ أي: إذا شاء إنشاره أنشَره على القاعدة المستمرّة في حذف مفعولِ المشيئة. وفي تعليق الإنشار بمشيئته تعالى إيذانٌ بأنّ وقته غيرُ متعيِّن؛ بل هو تابع لها. وقُرئ: "نَشَرَهُ".[3]

---

[1] جزر السِّباع والطير: اللحم الذي تأكله، بأن يُترك قطعًا. لسان العرب لابن منظور، «جزر».

[2] وفي هامش م: قال أبو عبيدة: أقبَره: جَعَل له قبرًا وأمَر أن يُقبَر. «منه». | وانظر الكلام في مجاز القرآن لابي عبيدة، ٢/٢٨٦.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن شعيب وأبي حمزة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٥٠٣؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٩١.

﴿كَلَّا﴾ ردع للإنسان عمّا هو عليه. وقوله تعالى: ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ بيان لسبب الردع، أي: لم يقضِ بعدُ مِن لدن آدمَ عليه السلام إلى هذه الغاية مع طول المدى وامتداده ما أمره الله تعالى بأسره؛ إذ لا يخلو أحد عن تقصير ما. كذا قالوا، وهكذا نُقل عن مجاهدٍ وقتادةَ.[1]

ولا ريبَ في أنّ مساق الآياتِ الكريمة لبيان غاية عِظَم جنايةِ الإنسان وتحقيقِ كفرانه المفرط المستوجِب للسخط العظيم، وظاهرٌ أنّ ذلك لا يتحقّق بهذا القدر مِن نوع تقصير لا يخلو عنه أحد مِن أفراده، كيف لا، وقد قال صلّى الله عليه وسلّم: «شيّبتني سورة هود»،[2] لِما فيها مِن قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود، ١١٢/١١].

فالوجه أن يُحمَل عدمُ القضاء على عموم النفي لا على نفي العموم، إمّا على أنّ المحكوم عليه هو المستغني، أو هو الجنس، لكن لا على الإطلاق؛ بل على أنّ مِصداق الحُكم بعدم القضاء بعضُ أفراده، وقد أسنِدَ إلى الكلّ، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم، ٣٤/١٤] للإشباع في اللوم بحُكم المجانسة، على طريقة قولهم: "بنو فلان قتلوا فلانًا" والقاتل واحد منهم، وإمّا على أنّ مِصداقه الكلّ[3] مِن حيث هو كلّ بطريق رَفْع الإيجاب الكلّي دون السَّلْب الكلّي، فالمعنى لمّا يقضِ جميعُ أفراده ما أمره، بل أخلّ به بعضُها بالكفر والعصيان، مع أنّ مقتضى ما فُصِّل مِن فنون النَّعماء الشاملة للكلّ أن لا يتخلّف عنه أحد أصلًا. هذا، وقد قيل: ﴿كَلَّا﴾ بمعنى حقًّا،[4] فيتعلّق بما بعده، أي: حقًّا لم يعمل بما أمره به.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ شروع في تعداد النِّعَم المتعلِّقة ببقائه بعد تفصيل النِّعَم المتعلِّقة بحدوثه، أي: فلينظر إلى طعامه الذي عليه يدور أَمْر معاشه كيف دبّرناه.

---

١ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٣٣٨/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٢٨/٤؛ واللباب لابن عادل، ١٦٣/٢٠.

٢ سنن الترمذي، ٤٠٢/٥ (٣٢٩٧)؛ المعجم الكبير للطبراني، ١٤٨/٦ (٥٨٠٤)؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٠٣/٤ (هود، ١١٢/١١)؛ الكشّاف للزمخشري، ٣١٩/٢ (هود، ١١٢/١١).

٣ السياق: إمّا على أنّ المحكوم... وإمّا على أنّ مِصداقه...

٤ مرويّ عن الحسن في تفسير القرطبي، ٢١٩/١٩؛ ونقله عن القرطبي ابن عادل في اللباب، ١٦٣/٢٠.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا﴾ أي: الغيث بدل اشتمال مِن ﴿طَعَامِهِۦٓ﴾؛ لأنّ الماء سبب لحدوث الطعام / فهو مشتمِل عليه. وقُرئ: "إِنَّا"[1] على الاستئناف، [٢٧٢ظ] وقُرئ: "أَنَّى"[2] بالإمالة. أي: كيف صببنا... إلخ، أي: صببناه صبًّا عجيبًا.

﴿ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: بالنبات ﴿شَقّٗا﴾ بديعًا لائقًا بما يَشقّها مِن النبات صِغرًا وكِبَرًا وشكلًا وهيئةً. وحَمْلُ شقّها على ما بالكِراب[3] بجَعْل إسناده إلى نون العظمة مِن قبيل إسناد الفعل إلى سببه،[4] يأباه كلمة ﴿ثُمَّ﴾.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا﴾ فإنّ الشقّ بالمعنى المذكور لا ترتُّب بينه وبين الإمطار أصلًا، ولا بينه وبين إنبات الحبّ بلا مُهلة، وإنّما الترتّب بين الإمطار وبين الشقّ بالنبات على التراخي المعهود وبين الشقّ المذكور وبين إنبات الحبّ بلا مهلة، فإنّ المراد بالنبات ما نبت مِن الأرض إلى أن يتكامل النموّ وينعقِد الحبّ، فإنّ انشقاق الأرض بالنبات لا يزال يتزايد ويتّسع إلى تلك المرتبة.

على أنّ مَساق النظم الكريم لبيان النِّعَم الفائضة مِن جنابه تعالى على وجه بديع خارج عن العادات المعهودة، كما ينبئ عنه تأكيد الفعلين بالمصدرين، فتوسيط فِعْل المُنعَم عليه في حصول تلك النِّعَم مُخِلّ بالمرام.

وقوله تعالى: ﴿وَعِنَبٗا﴾ عطفٌ على ﴿حَبّٗا﴾، وليس مِن لوازم العطف أن يُقيَّد المعطوف بجميع ما قُيِّد به المعطوف عليه، فلا ضيرَ في خلوّ إنبات العِنَب عن شقّ الأرض. ﴿وَقَضۡبٗا﴾ أي: رَطبةً، سُمِّيت بمصدر قَضَبه، أي: قَطَعه مبالغةً، كأنّها لتكرُّر قَطْعها وتكثُّره نفسُ القَطْع.

﴿وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا﴾ الكلام فيهما وفي أمثالهما كما في العنب.

﴿وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا﴾ أي: عِظامًا. وُصِف به الحدائق لتكاثفها وكثرةِ أشجارها، أو لأنّها ذات أشجار غِلاظ. مُستعار مِن وَصْف الرِّقاب.

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر ووافقهم رُويس في الابتداء. النشر لابن الجزري، ٣٩٨/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الصرصري والعنبريّ والمَلَطي والبصري، كلّهم عن أبي بكر عن عاصم. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٩١.

٣ كَرَب الأرض يكرِبها كربًا وكِرابًا: قَلَبها للحَرْث وأثارها للزرع. لسان العرب لابن منظور، «كرب».

٤ جوّز الزمخشري هذا الوجه في الكشّاف، ٥٢٨/٤.

﴿وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا﴾ أي: مرعًى مِن "أبّه" إذا أمّه، أي: قَصده؛ لأنّه يؤمّ وينتجَع، أو مِن "أبّ لكذا" إذا تهيّأ له؛ لأنّه متهيّئ للرعي، أو فاكهةً / يابسةً تؤبّ للشتاء. [٢٧٣و] وعن الصِّدّيق رضي الله عنه أنّه سُئل عن "الأبّ" فقال: «أيُّ سماء تُظِلّني، وأيُّ أرض تُقلّني إذا قلتُ في كتاب الله ما لا عِلمَ لي به».[١] وعن عمرَ رضي الله عنه أنّه قرأ هذه الآية، فقال: «كلُّ هذا قد عرفنا، فما الأبّ؟» ثم رفض عصًا كانت بيده وقال: «هذا لعَمْرُ الله التكلُّف، وما عليك يا ابن أمّ عمرَ ألّا تدري ما الأبّ؟»، ثم قال: «اتّبعوا ما تبيَّن لكم مِن هذا الكتاب، وما لا فدَعوه».[٢]

﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ إمّا مفعول له، أي: فعلَ ذلك تمتيعًا لكم ولمواشيكم، فإنّ بعض النِّعَم المعدودة طعامٌ لهم وبعضَها علفٌ لدوابّهم. والالتفاتُ لتكميل الامتنان؛ وإمّا مصدرٌ مؤكِّد لفعله المضمر بحَذْف الزوائد، أي: متَّعكم بذلك مَتاعًا، أو لفعل مترتِّب عليه، أي: متَّعكم بذلك فتمتَّعتم مَتاعًا، أي: تمتُّعًا كما مرّ غيرَ مرّة، أو مصدرٌ مِن غير لفظه، فإنّ ما ذُكر مِن الأفعال الثلاثة في معنى التمتيع.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ٣٣ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ٣٩ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ٤٠ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ٤١ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ٤٢﴾

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ شروع في بيان أحوال معادهم إثرَ بيان مبدأ خلقهم ومعاشهم. و"الفاء" للدلالة على ترتّب ما بعدها على ما قبلها مِن فنون النِّعَم عن قريب، كما يُشعِر لفظ "المتاع" بسرعة زوالها وقُرب اضمحلالها. و﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ هي الداهية العظيمة التي يصخّ لها الخلائق، أي: يُصيخون لها، مِن "صَخّ لحديثه" إذا أصاخ له واستمع. وُصِفت بها النفخة الثانية؛ لأنّ الناس يصخّون لها.

---

[١] بلفظ قريب في شعب الإيمان للبيهقي، ٥٤٠/٣ (٢٠٨٢)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٣٩/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٢٩/٤.

[٢] مرويّ عن أنس بن مالك بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٢٠/٢٤؛ والمستدرك للحاكم، ٥٥٩/٢ (٣٨٩٧)؛ وشعب الإيمان للبيهقي، ٥٤١/٣ (٢٠٨٤)؛ وهو بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٩/٤.

وقيل: هي الصيحة التي تُصِخّ الآذان، أي: تُصِمّها لشِدّة وقعِها. وقيل: هي مأخوذة مِن "صَخَّه بالحَجَر"، أي: صَكّه.[١]

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ إمّا منصوب بـ"أعني" تفسيرًا لـ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾، أو بدل منها، مبنيّ على الفتح بالإضافة إلى الفعل على رأي الكوفيّين.[٢] وقيل: بدل مِن ﴿إِذَا جَآءَتْ﴾،[٣] كما مرّ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ﴾ [النازعات، ٣٥/٧٩]... إلخ، أي: يُعرِض عنهم ولا يُصاحِبهم ولا يَسأل عن حالهم كما في الدنيا / لاشتغاله بحال نفسه. [٢٧٣ظ]

وأمّا تعليل ذلك بعلمه بأنّهم لا يُغنون عنه شيئًا، أو بالحذر مِن مطالبتهم بالتبِعات،[٤] فيأباه قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾؛ فإنّه استئناف وارد لبيان سببِ الفِرار، أي: لكلّ واحد مِن المذكورين شُغل شاغل وخَطْب هائل يكفيه في الاهتمام به. وأمّا الفِرار حَذَرًا مِن مطالبتهم أو بُغضًا لهم، كما يُروى عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّه يفِرّ قابيلُ مِن أخيه هابيلَ، ويفِرّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مِن أمّه، ويفِرّ إبراهيمُ عليه السلام مِن أبيه، ونوحٌ عليه السلام مِن ابنه، ولوطٌ عليه السلام مِن امرأته،[٥] فليس مِن قبيل[٦] هذا الفرارِ.

وكذا ما يُروى أنّ الرجل يفِرّ مِن أصحابه وأقربائه لئلّا يرَوه على ما هو عليه مِن سوء الحال. وقُرئ: "يَعْنِيهِ" بـ"الياء" المفتوحة و"العين" المهملة، أي: يُهمّه مِن "عَناه الأمرُ" إذا أهمّه، أي: أوقعه في الهمّ، ومنه: «مِن حُسن إسلام المرء تركُه ما لا يَعنيه».[٧] لا مِن "عَناه" إذا قَصَده كما قيل.[٨]

وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ بيان لمآل أَمر المذكورين وانقسامهم إلى السُّعداء والأشقياء بعد ذِكر وقوعهم في داهية دَهْياء، فـ﴿وُجُوهٌ﴾ مبتدأ

---

١ القولان في اللباب لابن عادل، ١٦٩/٢٠.
٢ انظر قولهم وتفصيله في شرح الرضيّ على الكافية، ٢٤٩/١.
٣ القول في اللباب لابن عادل، ١٧٠/٢٠.
٤ كما ذكر البيضاوي في أنوار التنزيل، ٥٠١/٣.
٥ مرويّ عن ابن عبّاس وقتادة في معالم التنزيل للبغوي، ٣٤٠/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٣٠/٤.
٦ السياق: وأمّا الفرارُ... فليس مِن قبيل...
٧ مسند أحمد، ٢٥٩/٣ (١٧٣٧)؛ سنن الترمذي، ٥٥٨/٤ (٢٣١٧)؛ سنن ابن ماجه، ١١٩/٥ (٣٩٧٦).
٨ القول في اللباب لابن عادل، ١٧١/٢٠.

وإن كانت نكرةً لكونها في حيّز التنويع، و﴿مُّسْفِرَةٌ﴾ خبره، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ متعلّق به، أي: مُضيئة متهلّلة مِن "أسفَر الصبح" إذا أضاء. وعن ابن عبّاس أنّ ذلك مِن قيام الليل. وفي الحديث: «مَن كثُر صلاته بالليل حَسُن وجهه بالنهار».[1] وعن الضحّاك: مِن آثار الوضوء.[2] وقيل: مِن طُول ما اغبرّت في سبيل الله.[3]

﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ بما تُشاهِد مِن النعيم المُقيم والبهجة الدائمة.

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ أي: غُبار وكُدورة.

﴿تَرْهَقُهَا﴾ أي: تعلوها وتغشاها ﴿قَتَرَةٌ﴾ أي: سواد وظُلمة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى أصحاب تلك الوجوه، وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد درجتهم في سوء الحال، أي: أولئك الموصوفون بسواد الوجوه وغيره. ﴿هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ الجامعون / بين الكفر والفجور، فلذلك جَمَع الله [٢٧٤و] عزّ وجلّ إلى سواد وجوههم الغَبرةَ.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة عبس جاء يوم القيامة ووجهُه ضاحك مُستبشِر».[4]

---

١ سنن ابن ماجه، ٣٥٨/٢ (١٣٣٣)؛ شعب الإيمان للبيهقي، ٤٧١/٤ (٢٨٣٠)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٣٠/٤.

٢ لم أجده في مظانّه. وهو في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٠/٤؛ واللباب لابن عادل، ١٧٢/٢٠.

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٠/٤.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٠٤/٢٨ (عبس، ١/٨٠)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٢٢/٤ (عبس، ١/٨٠)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٣٠/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٨٠

سورة عبس

مكية، اثنتان وأربعون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ - ﴿عَبَسَ﴾ النبيُّ: كلَحَ وجهُه ﴿وتَوَلَّى﴾: أعرضَ لأجل ٢ - ﴿أن جاءَهُ الأعمَى﴾ عبدُ الله بن أُمِّ مكتوم، فقطعه عما هو مشغول به ممَّن يرجو إسلامَه من أشراف قريش الذي هو حَريص على إسلامهم. ولم يدرِ الأعمى أنه مشغول بذلك، فناداه: عَلِّمْني ممّا علَّمَك الله. فانصرف النبيّ إلى بيته، فعوتب في ذلك بما نزل في هذه السورة، فكان بعد ذلك يقول له إذا جاء: «مَرحَبًا بمَن عاتَبَني فِيهِ رَبِّي»، ويَبسُط له رداءه.

سورة عبس

قولُهُ: (لأَجلِ) علَّةٌ لـ﴿تَوَلَّى﴾ أو ﴿عَبَسَ﴾، على اختلافِ المذهَبَينِ في التَّنازُعِ[1].

قولُهُ: (عَلِّمْني) وكرَّرَ ذلك فكَرِهَ رسولُ الله ﷺ قطعَهُ لكلامِهِ، وعبَّسَ وأعرَضَ عنه.

قولُهُ: (رِدَاءَهُ) واستخلَفَهُ على المدينَةِ مرَّتَينِ[2]، وفي «الكشاف»[3]: رويَ أنَّه ما عبَسَ بعدها في وجهِ فَقيرٍ قطُّ، ولا تصَدَّى لغنيٍّ، وذكَرَ الأعمَى للإشعارِ بعُذرِهِ في الإقدامِ على قَطعِ الكَلامِ، والدَّلالَةِ على أنَّه أحَقُّ بالرِّفقِ والرَّأفةِ من سائرِ الأنامِ، وللإشارَةِ بالتَّخلُّقِ بأخلاقِ الله حيثُ قالَ في الحديثِ القُدسيِّ: «مَن تقرَّبَ إليَّ شِبراً تَقرَّبتُ إليهِ باعاً[4]»[5]، ولقولِهِ تعالى لداودَ: «إذَا رَأيتَ لِي طالِباً، فَكُن لَهُ خادِماً»[6].

---

(١) الكوفي والبصري؛ فالكوفيون يرجحون إعمال الأول، والبصريون الثاني.

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢١٩). (٣) انظر: «الكشاف» (٤/ ٧٠١).

(٤) كذا في كل الأصول، والصواب: «ذراعاً».

(٥) روى البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم، وإن تقرب إلي بشبر تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة».

(٦) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٤٨٢) عن عبد العزيز بن عمر.

٣ ـ ﴿وما يُدرِيكَ﴾: يُعلِمُك: ﴿لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ ـ فيه إدغام التاء في الأصل في الزاي ـ أي: يتطهَّرُ من الذنوب بما يسمع منك ٤ ـ ﴿أو يَذَّكَّرُ﴾، فيه إدغام التاء في الأصل في الذال، أي: يتّعظ ﴿فتنفَعَهُ الذِّكرَى﴾: العِظةُ المسموعة منك؟ وفي قراءة بنصب «تَنفَعَهُ» جوابَ الترجّي.

٥ ـ ﴿أمّا مَنِ استَغنَى﴾ بالمال ٦ ـ ﴿فأنتَ لَهُ تَصَدَّى﴾، وفي قراءة بتشديد الصاد بإدغام التاء الثانية في الأصل فيها: تُقبِلُ وتتعرّضُ، ٧ ـ ﴿وما عَلَيكَ ألاّ يَزَّكَّى﴾: يُؤمنَ، ٨ ـ ﴿وأمّا مَن جاءَكَ يَسعَى﴾: حالٌ من فاعل «جاء»، ٩ ـ ﴿وهُوَ يَخشَى﴾ اللهَ: حالٌ من فاعل «يسعى» وهو الأعمى، ١٠ ـ ﴿فأنتَ عَنهُ تَلَهَّى﴾ ـ فيه حذف التاء الأُخرى في الأصل ـ أي: تتشاغلُ. ١١ ـ ﴿كَلاّ﴾ لا تفعلْ مثلَ ذلك ﴿إنَّها﴾ أي: السُّورةَ ....

قولُهُ: (يُعلِمُك) أي: وأيُّ شيءٍ يجعلُكَ دارياً بحالِهِ.

قولُه: (يَتَطَهَّرُ) وفيه إيماءٌ بأنَّ إعراضَهُ كان لتزكيَةِ غيرِهِ.

قولُهُ: (العِظَةُ) أي: موعِظَتُكَ (وَفِي قِرَاءَةٍ) لعاصِم[1].

قولُهُ: (بالمَالِ) هو أميَّةُ بن خَلَف، أو عتبَةُ بن ربيعَةَ، أو هو وأبو جهلٍ والعبَّاسُ بن عبدِ المطَّلِب، كذا في «المبهمات»[2]، والظَّاهرُ أنَّ المرادَ بـ﴿مَن﴾ معناهُ الجَمع.

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ) للحرميِّ[3].

قولُهُ: (تُقبِل) عليه (وتَتَعَرَّضُ) له.

قولُهُ: (يُؤمِنَ) أي: ليس عليكَ بأسٌ في أن لا يتزَكَّى بالإسلامِ حتَّى يبعثَكَ الحِرصُ على إسلامِهِ إلى الإعراضِ عمَّن أسلمَ، إنْ عليكَ إلَّا البلاغُ.

قولُهُ: (حَالٌ) أي: يسرِعُ طالباً للخَيرِ.

قولُهُ: (الله) أو أذيَّةَ الكفَّارِ في إتيانِكَ، أو كبوَةَ الطَّريقِ؛ لأنَّه أعمى لا قائدَ له.

قولُهُ: (الأُخرَى) أو الأولى، وقرأ البزِّيُّ بإشباعِ الضَّميرِ وتشديدِ التَّاءِ[4].

قولُهُ: (لا تَفعَلْ) أي: رَدعٌ عن معاودَةِ مثله.

---

(١) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ٢٠٣).

(٢) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ١١٥). الأول والثاني عزاه لابن أبي حاتم عن مجاهد، والثالث عن ابن عباس من طريق العوفي.

(٣) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ٢٠٣).

(٤) انظر: «غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٦١٨).

أو الآياتِ ﴿تَذْكِرَةٌ﴾: عظة للخلق ـ ١٢ ـ ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾: حَفِظَ ذلك فاتعظَ به ـ ١٣ ـ ﴿فِي صُحُفٍ﴾: خبرٌ ثانٍ لـ «إنها»، وما قبله اعتراض، ﴿مُكَرَّمَةٍ﴾ عِند الله، ١٤ ـ ﴿مَرْفُوعَةٍ﴾ في السماء ﴿مُطَهَّرَةٍ﴾: مُنزّهة عن مسّ الشياطين، ١٥ ـ ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾: كَتَبَةٍ ينسخونها من اللوح المحفوظ، ١٦ ـ ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾: مُطيعينَ للهِ ـ تعالى ـ وهم الملائكة.

١٧ ـ ﴿قُتِلَ الإِنسَانُ﴾: لُعِنَ الكافر. ﴿مَا أَكْفَرَهُ﴾؟ استفهام توبيخ، أي: ما حَمَلَهُ على الكُفر؟ ١٨ ـ ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾؟ استفهام تقرير، ثمّ بيّنه فقال: ١٩ ـ ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ علقةً ثمّ مُضغة إلى آخر خلقِه، ٢٠ ـ ٢١ ـ ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ﴾ أي: طريقَ خُروجه من بطن أُمّه ﴿يَسَّرَهُ، ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾: جعلَه في قبر يَستره، ٢٢ ـ ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ للبعث.

قولُهُ: (أو الآيَاتِ) أو المعاتبَةَ.

قولُهُ: (عِظَةٌ) أي: موعظَةٌ بليغَةٌ مباركَةٌ.

قولُهُ: (حَفِظَ ذَلِكَ) أي: العتابَ المذكورَ، أو القُرآنَ؛ أي: فمن شاءَ الله التَّوفيقَ له قبلَهُ.

قولُهُ: (خَبرٌ ثَانٍ) أو خبرُ محذوفٍ، أو صفَةٌ لـ﴿تَذْكِرَة﴾؛ أي: مُثبتَةٌ فيها.

قولُهُ: (فِي السَّمَاءِ) أو مرفوعَةِ القَدرِ.

قولُهُ: (مِن اللَّوحِ) أو الوحيِ.

قولهُ: (المَلائِكَةُ) أو الأنبياءُ.

قولُهُ: (لُعِنَ الكَافِرُ) دعاءٌ عليهِ بأشنَعِ الدَّعَواتِ.

قولُهُ: (تَوبِيخٍ) وتعجيبٍ من إفراطِهِ في الكفرانِ.

قولُهُ: (تَقرِيرٍ) أو تحقيرٍ، وهو الأظهَرُ، وهو بيانٌ لما أنعَمَ عليه خصوصاً من مبدَأ حدوثِهِ.

قولُهُ: (عَلَقَةً) أي: فقدَّرهُ أطواراً من نُطفَةٍ إلى أن تمَّ خلقُهُ.

قولُهُ: (طَرِيقُ خُرُوجِهِ) بأن فتَحَ فُوَّهةَ الرَّحمِ، وألهمَهُ أن ينكُسَ، أو ذلَّلَ له سبيلَ الخيرِ والشَّرِّ، وفيه إشعارٌ بأنَّ الدُّنيا طريقٌ، والمقصدُ غيرها.

قولُهُ: (فِي قَبرٍ) أي: جعَلهُ ذا قَبرٍ.

قولُهُ: (للبَعثِ) وعَدُّ الإماتَةِ والإقبارِ في النِّعَمِ؛ لأنَّ الإماتَةَ وُصلَةٌ في الجُملةِ إلى الحياةِ الأبديَّةِ واللَّذَّاتِ الخالصَةِ السَّرمديَّةِ، والأمرُ بالقبرِ تكرمَةٌ، وفي ﴿إِذَا شَاءَ﴾: إشعارٌ بأنَّ وقتَ النُّشورِ غير متعيِّنٍ في نفسِهِ، وإنَّما هو موكولٌ إلى مشيئتِهِ.

٢٣ ـ ﴿كَلاَّ﴾: حقًّا ﴿لَمَّا يَقضِ﴾: لم يفعلْ ﴿ما أَمَرَهُ﴾ به ربّه.

٢٤ ـ ﴿فلْيَنظُرِ الإنسانُ﴾ نظرَ اعتبار ﴿إلَى طَعامِهِ﴾ كيف قُدّر ودُبّر له؟ ٢٥ ـ ٢٦ ـ ٢٧ ـ ﴿إنّا صَبَبْنا الماءَ﴾ من السحاب ﴿صَبًّا، ثُمَّ شَقَقْنا الأرضَ﴾ بالنبات ﴿شَقًّا، فأنبَتْنا فِيها حَبًّا﴾ كالحِنطة والشعير، ٢٨ ـ ﴿وعِنَبًا وقَضْبًا﴾ هو: القَتّ الرَّطب، ٢٩ ـ ٣٠ ـ ﴿وزَيتُونًا ونَخلاً، وحَدائقَ غُلبًا﴾: بساتين كثيرة الأشجار، ٣١ ـ ﴿وفاكِهةً وأبًّا﴾: ما ترعاه البهائم، وقيل: التِّبنُ، ٣٢ ـ ﴿مَتاعًا﴾: مُتعة أو تمتيعًا كما تقدّم في السورة قبلها ﴿لَكُم ولأنعامِكُم﴾.

٣٣ ـ ﴿فإذا جاءَتِ الصّاخّةُ﴾: النفخة الثانية ٣٤ ـ ٣٥ ـ ٣٦ ـ ﴿يَومَ يَفِرُّ المَرءُ مِن أخِيهِ، وأُمِّهِ وأبِيهِ، وصاحِبَتِهِ﴾:..

قولُهُ: (حَقًّا) أو رَدعٌ للإنسانِ عمَّا هو عليه.

قولُهُ: (لَم يَفعَلْ) أي: لم يقضِ بعدُ من لدُنْ آدمَ عليهِ السَّلام إلى هذه الغايَةِ ما أَمَرَ الله تعالى بأسرِهِ؛ إذ لا يخلو أحَدٌ من تقصيرٍ ما.

قولُهُ: (كَيفَ قُدِّرَ) إتْباعٌ للنِّعمِ الذَّاتيَّةِ بالنِّعمِ الخارجيَّةِ.

قولُهُ: (مِنَ السَّحَابِ) استئنافٌ مُبيِّنٌ لكيفيَّةِ إحداثِ الطَّعامِ، وقرأ الكوفيُّونَ بالفتحِ[١] على البدلِ منه بدلَ اشتِمالٍ.

قولُهُ: (هُوَ القَتُّ الرَّطْبُ) يعني: الرَّطبَة، ويقالُ لها الآن في استعمالِ أهلِ مكَّةَ البَرسِيمُ، وبالفارِسيَّة: (سبيست)[٢]، سُمِّيت بمصدرِ قَضبَه: إذا قطَعَهُ؛ لأنَّها تُقضَبُ مرَّةً بعدَ أخرى[٣].

قولُهُ: (بَساتِينَ و﴿غُلباً﴾) جمعُ: غلباء؛ أي: عظاماً، وصَفَ به الحَدائِقَ لتكاثُفِها وكثرَةِ أشجارِها.

قولُهُ: (وقيلَ: التِّبنُ) وقيل: فاكِهةٌ يابسَةٌ تؤَبُّ وتهيَّأ للشِّتاءِ.

قولُهُ: (النَّفخَةُ) وُصفَت بها مَجازاً؛ لأنَّ النَّاسَ يصيخُونَ لها؛ أي: يُصغونَ إليها، وقيل: الصَّاخَّةُ: صيحَةٌ تَصُمُّ لشدَّتِها.

---

(١) انظر: «غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٦١٨).

(٢) جاء في «تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٢١): وهي الإسْفِسْتُ؛ بالفارسيَّة. وانظر «المغرب» (ص: ٣٧٢).

وجاء في «التكملة والذيل والصلة» للصغاني (٥/ ٥٧٧): الشَّبْذَر.

(٣) انظر: «تفسير الزمخشري» (٤/ ٧٠٤).

زوجته ﴿وبَنِيهِ﴾ يومَ: بدلٌ من «إذا»، وجوابُها دلّ عليه: ٣٧ ـ ﴿لِكُلِّ امرِئٍ مِنهُم يَومَئِذٍ شأنٌ يُغنِيهِ﴾: حالٌ يَشغله عن شأن غيره، أي: اشتغلَ كل واحد بنفسه، ٣٨ ـ ﴿وُجُوهٌ يَومَئِذٍ مُسفِرةٌ﴾: مضيئة، ٣٩ ـ ﴿ضاحِكةٌ مُستَبشِرةٌ﴾: فرحة ـ وهم المؤمنون ـ ٤٠ ـ ﴿ووُجُوهٌ يَومَئِذٍ علَيها غَبَرةٌ﴾: غُبار، ٤١ ـ ﴿تَرهَقُها﴾: تغشاها ﴿قَتَرةٌ﴾: ظُلمة وسواد. ٤٢ ـ ﴿أُولَئِكَ﴾: أهل هذه الحالة ﴿هُمُ الكَفَرةُ الفَجَرةُ﴾ أي: الجامعون بين الكُفر والفُجور.

قولُهُ: (زَوجَتِهِ) لاشتِغالِهِ بشأنِهِ وعلمِهِ بأنّهم لا ينفَعونَهُ، قال الحسنُ[1]: أوّلُ من يفرُّ يومَ القيامَةِ من أبيهِ: إبراهيمُ، ومن ابنهِ: نوحٌ، ومن امرأتهِ: لوطٌ، كذا في «التَّذكِرَة» للقرطُبيِّ[2]، ولعلَّ أوّلَ من يفِرُّ من أخيهِ هابيلُ، ومن أمِّهِ بناتُ لوطٍ.

قولُهُ: (يَشغَلُهُ) أي: يكفيهِ في الاهتِمامِ به، وقرئَ: (يَعنِيه)[3] أي: يُهِمُّه.

قولُهُ: (مُضِيئَةٌ) من إسفارِ الصُّبحِ.

قولُهُ: (فَرِحَةٌ) لما ترى من النِّعَمِ.

قولُهُ: (غُبَارٌ) وكُدورَةٌ.

قولُهُ: (ظُلمَةٌ وسَوَادٌ) الأحسَنُ: سوادٌ وظلمَةٌ.

قولُهُ: (بينَ الكُفرِ والفُجُورِ) فلذلك يجمَعُ إلى سَوادِ وجوهِهِم الغبرَةَ، والله أعلمُ.

***

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٤/ ٨).

(٢) انظر: «التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة» (ص: ٥٧٨).

(٣) وهي قراءة شاذة، ونسبت لابن محيصن وابن أبي عبلة، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٥٠٣).

سُورَةُ عَبَسَ

وتسمَّى سورة الصَّاخَّة، وسورة السَّفَرَة، وسمِّيت في غير كتاب[1] سورة الأعمى. وهي مكية بلا خلاف.

وآيها اثنتان وأربعون في الحجازيِّ والكوفيِّ، وإحدى وأربعون في البصريِّ، وأربعون في الشاميِّ والمدني الأول[2].

ولما ذكر سبحانه فيما قبلها ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥] ذكر عز وجل في هذه مَن ينفعه الإنذار ومَن لم ينفعه، فقال عز من قائل:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢﴾ إلخ. رُوي أنَّ ابن أمِّ مكتوم وهو ابنُ خال خديجة ـ واسمه: عمرو بن قيس بن زائدة بن جندب بن هرم بن رواحة بن حجر بن معيص بن عامر بن لؤي القرشي، وقيل: عبد الله بن عمرو. وقيل: عبد الله بن شريح بن مالك بن أبي ربيعة الفهري. والأول أكثر وأشهر كما في «جامع الأصول»[3]، وأمُّ مكتوم كنيةُ أمِّه، واسمها: عاتكة بنت عبد الله المخزومية، وغَلِط الزمخشريُّ في جعلها في «الكشاف»[4] جدتَه. وكان أعمى، وعَمِي بعد نُور، وقيل: وُلد أعمى، ولذا قيل لأمِّه: أمّ مكتوم ـ أتى رسول الله ﷺ وعنده صناديدُ

---

(١) في القراءات الشاذة ص١٦٨: سورة الأعمى والعتاب.

(٢) في هامش الأصل: اختلافها ثلاث: ﴿وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾، ﴿إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾، ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾.

(٣) لم نقف على نسبه فيه، وهو في الإصابة ٧/ ٨٣، والاستيعاب ٨/ ٣٥١ (بهامش الإصابة).

(٤) ٤/ ٢١٧.

قريش: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل، والعباس بن عبد المطلب، وأميَّة بن خلف، والوليد بن المغيرة، يناجيهم ويدعوهم إلى الإسلام رجاءَ أن يُسلم بإسلامهم غيرُهم، فقال: يا رسول الله، أقرئني وعلِّمني مما علَّمك الله تعالى. وكرَّر ذلك ولم يعلَم تشاغُلَه بالقوم، فكره رسولُ الله ﷺ قطعَه لكلامه وعبس وأعرض عنه، فنزلت. فكان رسول الله عليه الصلاة والسلام يُكرمه ويقول إذا رآه: مرحباً بمن عاتبني فيه ربِّي. ويقول: هل لك من حاجة[1]. واستخلفه ﷺ على المدينة فكان يصلِّي بالناس ثلاث عشرة مرَّة كما رواه ابن عبد البر في «الاستيعاب»[2] عن أهل العلم بالسِّيَر، ثم استخلف بعده أبا لُبابة.

وهو من المهاجرين الأولين، هاجر على الصحيح قبلَ النبيِّ ﷺ، ووهم القرطبي[3] في زعمه أنه مدنيٌّ، وأنه لم يجتمع بالصناديد المذكورين من أهل مكة.

وموته ـ قيل ـ بالقادسية شهيداً يوم فتح المدائن أيام عمر رضي الله عنه، ورآه أنس يومئذٍ وعليه درعٌ، وله راية سوداء. وقيل: رجع منها إلى المدينة فمات بها رضي الله عنه.

وضميرُ «عَبَسَ» وما بعده للنبيِّ ﷺ، وفي التعبير عنه عليه الصلاة والسلام بضمير الغيبة إجلالٌ له ﷺ؛ لإيهام أنَّ من صدر عنه ذلك غيره لأنه لا يصدر عنه ﷺ مثلُه، كما أنَّ في التعبير عنه ﷺ بضمير الخطاب في قوله سبحانه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾ ذلك؛ لِمَا فيه من الإيناس بعد الإيحاش، والإقبال بعد الإعراض. والتعبيرُ عن ابن أمِّ مكتوم بـ «الأعمى» للإشعار بعذره في الإقدام على قطع كلام الرسول ﷺ وتشاغلِه بالقوم.

وقيل: إنَّ الغيبة أولاً والخطاب ثانياً لزيادة الإنكار، وذلك كمن يشكو إلى الناس جانياً جنى عليه ثم يُقبل على الجاني إذا حمي على الشكاية مواجهاً بالتوبيخ وإلزام الحجَّة، وفي ذكر الأعمى نحوٌ من ذلك لأنه وصفٌ يناسب الإقبال عليه

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص٤٧٩، وينظر: سنن الترمذي (٣٣٣١)، وتفسير الطبري ٢٤/ ١٠٢-١٠٤، والمستدرك ٢/ ٥١٤، والنكت والعيون ٦/ ٢٠٢، والكشاف ٤/ ٢١٧.
(٢) ٨/ ٣٥١.
(٣) في تفسيره ٢٢/ ٧١، نقلاً عن ابن العربي.

والتعطُّفَ، وفيه أيضاً دفع إيهام الاختصاص بالأعمى المعيَّن، وإيماءٌ إلى أنَّ كلَّ ضعيفٍ يستحقُّ الإقبال من مثله، على أسلوب: «لا يقضي القاضي وهو غضبان»[١].

و«أنْ» بتقدير حرف الجرِّ، أعني: لام التعليل، وهو معمولٌ لأول الفعلين على مختار الكوفيين، وثانيهما على مختار البصريين، وكليهما معاً على مذهب الفراء. نعم هو بحسب المعنى علَّةٌ لهما بلا خلافٍ، أي: عَبَسَ لأن جاءه الأعمى وأعرض لذلك.

وقرأ زيد بن عليٍّ: «عَبَّسَ» بتشديد الباء[٢]، للمبالغة لا للتعدية.

وهو والحسن وأبو عمران الجوني وعيسى: «آأنْ» بهمزة ومدَّة بعدها[٣]. وبعض القرَّاء بهمزتين محقَّقتين[٤]. والهمزة في القراءتين للاستفهام الإنكاريِّ. ويوقف على «تَوَلَّى»، والمعنى: ألأنْ[٥] جاء الأعمى فَعَلَ ذلك؟!.

وضمير «لعلَّه» للأعمى، والظاهر أنَّ الجملة متعلِّقةٌ بفعل الدراية على وجه سدَّ مسدَّ مفعوله، أي: أيُّ شيء يجعلك دارياً بحالِ هذا الأعمى، لعلَّه يتطهَّر بما يتلقَّن من الشرائع من بعضِ أوضار الإثم ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ أي: يتَّعظ ﴿فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾﴾ أي: ذكراك وموعظتك، والمعنى: إنَّك لا تدري ما هو مترقَّب منه من تزكٍّ أو تذكُّرٍ، ولو دريتَ لَمَا كان الذي كان. والغرضُ نَفْي درايةِ أنه يَزَّكَّى أو يذَّكَّر. والترجِّي راجعٌ إلى الأعمى أو إلى النبيِّ ﷺ ـ على ما قيل ـ دلالةً على أنَّ رجاءَ تزكِّيه أو كونه ممن يُرجَى منه ذلك كافٍ في الامتناع من العُبوس والإعراض، كيف وقد كان استزكاؤُه

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن حبان (٥٠٦٣) من حديث أبي بكرة ﷺ. وهو عند البخاري (٧١٥٨)، ومسلم (١٧١٧) بنحوه.

(٢) البحر ٨/ ٤٢٧. وهو في القراءات الشاذة ص١٦٨ دون نسبة.

(٣) القراءات الشاذة ص١٦٨، والبحر ٨/ ٤٢٧.

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٦، والبحر ٨/ ٤٢٧.

(٥) تحرف في (م) إلى: ألا أن. والمثبت من الأصل وتفسير البيضاوي مع الحاشية ٨/ ٣٢٠. والكلام منه.

محقَّقاً. ولَمَّا هضم من حقِّه في تعلُّق الرجاء به لا التحقُّقِ اعتبر متعلَّق التزكِّي بعضَ الأوضار ترشيحاً لذلك، وفيه إظهارُ ما يقتضي مقام العظمة هاهنا من إطلاق التزكِّي وحمله على ما ينطلق عليه الاسمُ لا الكامل.

وقال بعضهم[1]: متعلَّق الدراية محذوفٌ، أي: ما يُدريك أمرَه وعاقبةَ حاله ويُطلعك على ذلك، وقوله سبحانه: «لعله» إلخ استئنافٌ واردٌ لبيانِ ما يلوِّح به ما قبله، فإنه ـ مع إشعاره بأنَّ له شأناً منافياً للإعراض عنه، خارجاً عن دراية الغير وإدرائه ـ مُؤذِنٌ بأنه تعالى يُدريه ذلك، واعتَبَر في التزكِّي الكمالَ فقال: أي: لعلَّه يتطهَّر بما يقتبس منك من أوضار الإثم بالكلية، أو يتذكَّر فتنفعه موعظتك إن لم تبلغ درجةَ التزكِّي التامِّ. ولعلَّ الأوَّل أبعدُ مغزًى.

وقدَّم التزكِّي على التذكُّر لتقدُّم التخلية على التحلية، وخَصَّ بعضهم الثاني بما إذا كان ما يتعلَّمه من النوافل، والأولَ بما إذا كان سوى ذلك، وهو كما ترى.

وفي الآية تعريضٌ وإشعار بأنَّ مَن تصدَّى ﷺ لتزكيتهم وتذكيرهم من الكَفَرة لا يُرجى منهم التزكِّي والتذكُّر أصلاً، فهي كقولك لمن يقرِّر مسألةً لمن لا يفهمها وعنده آخَر قابلٌ لفهمها: لعلَّ هذا يفهم ما تُقرِّر، فإنه يُشعر بأنه قصد تفهيم غيره، وليس بأهل لِمَا قصده.

وقيل: جاء التعريض من جهةِ أنَّ المحدَّث عنه كان متزكِّياً من الآثام متَّعظاً.

وقيل: ضمير «لعلَّه» للكافر، والترجِّي راجعٌ إلى الرسول ﷺ، أي: إنك طعمتَ في تزكِّيه بالإسلام وتذكُّرِه بالموعظة، ولذلك أعرضتَ عن غيره، فما يُدريك أنَّ ما طمِعتَ فيه كائنٌ. وضعِّف بعدم تقدُّمِ ذكر الكافر، وبإفراد الضمير، والظاهرُ جمعه، أي: بناءً على المشهور في أنَّ مَن تشاغَل عليه الصلاة والسلام به كان جمعاً، وجاء في بعض الروايات أنه كان واحداً.

وقرأ الأعرج وعاصم في رواية: «أو يَذْكُر» بسكون الذال وضمِّ الكاف[2].

---

(١) هو أبو السعود في تفسيره ٩/ ١٠٧-١٠٨.

(٢) البحر ٨/ ٤٢٧.

وقرأ الأكثر: «فتنْفَعُه» بالرفع[1] عطفاً على «يذَّكَّر»، وبالنصب قرأ عاصمٌ في المشهور والأعرج وأبو حيوة وابن أبي عبلة والزعفرانيُّ[2]، وهو عند البصريين بإضمارِ «أن» بعد الفاء، وعند الكوفيين في جواب الترجِّي، وهو كالتمنِّي عندهم ينصب في جوابه.

وفي «الكشف» أنَّ النصب يؤيِّد رجوعَ ضميرِ «لعلَّه» على الكافر؛ لإشمام الترجِّي معنى التمنِّي لبعد المرجوِّ من الحصول، أي: بالنظر إلى المجموع؛ إذ قد حصل من العباس. وعلى السابق وجهُه ترشيحُ معنى الهضم، فتذكَّر.

﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥﴾ أي: عن الإيمان وعمَّا عندك من العلوم والمعارف التي ينطوي عليها القرآن، وفي معناه ما قيل: استغنى بكفره عمَّا يَهديه.

وقيل: أي: وأمَّا مَن كان ذا ثروةٍ وغنًى. وتعقِّب بأنه لو كان كذلك لذكر الفقر في مقابله. وأجيب بما ستعلمُه إن شاء الله تعالى.

﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾ أي: تتصدَّى وتتعرَّض بالإقبال عليه والاهتمام بإرشاده واستصلاحه، وفيه مزيدُ تنفيرٍ له ﷺ عن مصاحبتهم، فإن الإقبال على المدبِر مخلٌّ بالمروءة، ومن هنا قيل:

لا أبتغي وصلَ مَن لا يبتغي صِلَتي ... ولا أَلِينُ لِمَن لا يبتغي لِيني
واللهِ لو كرهَتْ كفِّي مصاحَبتي ... يوماً لقلتُ لها عن صُحبتي بِيْنِي[3]

---

(١) التيسير ص٢٢٠، والنشر ٢/ ٣٩٨.

(٢) المصدران السابقان، والبحر ٨/ ٤٢٧.

(٣) البيتان في مجمع الأمثال ٢/ ١٩٥ غير منسوبين. والشطر الأخير فيه:

لقلت للكف بيني إذ كرهتيني

وهما في تاريخ مدينة دمشق ٢٣/ ٣٥١، والوافي بالوفيات ١٦/ ٢٦٠-٢٦١، وفوات الوفيات ٢/ ١١١-١١٢ لصالح بن عبد القدوس الشامي، وهو الذي قتله المهدي في الزندقة، والرواية عندهم:

يا صاح لو كرهت كفي منادمتي ... لقلت إذ كرهَتْ كفي لها: بِيني
لا أبتغي وصلَ مَن لا يبتغي صلتي ... ولا أبالي حبيباً لا يباليني

وقرأ الحِرْميَّان: «تَصَّدَّى» بتشديد الصاد[1]، على أنَّ الأصلَ: تَتصدَّى، فقُلبت التاء صاداً وأدغمت.

وقرأ أبو جعفر: «تُصَدَّى» بضمِّ التاء وتخفيف الصاد مبنيًّا للمفعول[2]، أي: تُعرَّض، ومعناه: يدعوك إلى التصدِّي والتعرُّضِ له داعٍ من الحرص ومزيد الرغبة في إسلامه.

وأصلُ «تصدَّى» على ما في «البحر»[3]: تصدَّد، من الصدد: وهو ما استقبلك وصار قُبالتك، يقال: داري صدَدَ داره، أي: قُبالتها. وقيل: من الصَّدَى: وهو العطش. وقيل: من الصَّدَى: وهو الصوت المعروف.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾ وليس عليك بأسٌ في أن لا يتزكَّى بالإسلام حتى يبعثك الحرص على إسلامه إلى الإعراض عمَّن أسلم. فـ «ما» نافيةٌ والجملة حالٌ من ضمير «تصدّى»، والممنوع عنه في الحقيقة الإعراضُ عمَّن أسلم، لا الإقبالُ على غيره والاهتمامُ بأمره حرصاً على إسلامه. ويجوز أن تكون «ما» استفهامية للإنكار، أي: أيُّ شيء عليك في أن لا يتزكَّى. ومآله النفي أيضاً.

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨﴾ أي: حالَ كونه مُسرعاً طالباً لِمَا عندك من أحكام الرشد وخصال الخير ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩﴾ أي: يخاف الله تعالى. وقيل: أذيَّةَ الكفَّار في الإتيان. وقيل: العثارَ والكبوةَ؛ إذ لم يكن معه قائدٌ، والجملة حالٌ مِن فاعلِ «يَسْعَى»، كما أنَّ جملةَ «يَسْعَى» حالٌ من فاعل «جاءك».

واستظهر بعضُ الأفاضل أنَّ النظم الجليلَ من الاحتباك؛ ذَكَر الغنى أوَّلاً للدلالة على الفقر ثانياً، والمجيءَ والخشيةَ ثانياً للدلالة على ضدِّهما أوَّلاً. وكأنه حَمل «استغنى» على ما نُقل أخيراً، واستشْعَر ما قيل عليه فاحتاج لدفعه إلى هذا التكلُّف، وعدمُ الاحتياج إليه على ما نقلناه في غاية الظهور.

---

(١) التيسير ص٢٢٠، والنشر ٢/ ٣٩٨، وهي أيضاً قراءة أبي جعفر من العشرة.

(٢) القراءات الشاذة ص١٦٩، والمحتسب ٢/ ٣٥٢، والكلام من البحر ٨/ ٤٢٧. ونسبها في مجمع البيان ٣٠/ ٣٤ لأبي جعفر الباقر.

(٣) ٨/ ٤٢٥.

﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ تتشاغل، يقال: لَهِيَ عنه ـ كرَضِيَ ورَمَى ـ والْتَهى وتلهَّى. وفي تقديم ضميره عليه الصلاة والسلام على الفعلين تنبيهٌ على أنَّ مناطَ الإنكار خصوصيتُه عليه الصلاة والسلام.

وتقديم «له» و«عنه» ـ قيل ـ للتعريض بالاهتمام بمضمونهما. وقيل: للعناية؛ لأنهما منشأُ العتاب. وقيل: للفاصلة. وقيل: للحصر.

وذكر التصدِّي في المستغني دون الاشتغال به ـ وهو المقابل للتلهِّي عن المُسرِع الخاشي ـ والتلهِّي عنه دون عدم التصدي له ـ وهو المقابل للتصدِّي لذلك ـ قيل: للإشعار بأنَّ العتاب للاهتمام بالأول لا للاشتغال به، إذ الاشتغال بالكفار غيرُ ممنوع، وعلى الاشتغال عن الثاني لا لأنه لا اهتمامَ له ﷺ في أمره، إذ الاهتمامُ غيرُ واجب لأنه عليه الصلاة والسلام ليس إلا مُنذِراً.

وقرأ البزي عن ابن كثير: «عَنْهُ تَّلَهَّى» بإدغام تاء المضارعة في تاء تفعَّل[١].

وأبو جعفر: «تُلَهَّى» بضمِّ التاء مبنيًّا للمفعول[٢]، أي: يَشغلك الحرص على دعاء الكافر للإسلام.

وطلحة: «تَتَلهى» بتاءين، وعنه: بتاء واحدة وسكون اللام[٣].

﴿كَلَّآ﴾ مبالغة في إرشاده ﷺ إلى عدم معاودةِ ما عوتب عليه ﷺ، وقد نزل ذلك كما في خبرٍ رواه ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس بعد أن قَضى عليه الصلاة والسلام نجواه وذهب إلى أهله[٤].

وجوِّز كونه إرشاداً بليغاً إلى ترك المعاتَب عليه عليه الصلاة والسلام؛ بناءً على أنَّ النزول في أثناء ذلك وقبل انقضائه، وفي بعض الآثار أنه ﷺ بعدُ ما عَبَس في وجه فقيرٍ ولا تصدَّى لغنيٍّ، وتأدَّب الناس بذلك أدباً حسناً، فقد رُوي عن سفيان الثوريِّ أنَّ الفقراء كانوا في مجلسه أمراء.

---

(١) التيسير ص٨٢، والنشر ٢/ ٢٣٢-٢٣٣.

(٢) المحتسب ٢/ ٣٥٢، والبحر ٨/ ٤٢٨.

(٣) القراءات الشاذة ص١٦٩، والبحر ٨/ ٤٢٨.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٣١٥، وتفسير الطبري ٢٤/ ١٠٣.

والضمير في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا﴾ للقرآن العظيم، والتأنيثُ لتأنيث الخبر، أعني قولَه سبحانه: ﴿تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾﴾ أي: موعظةٌ يجب أن يُتَّعظ بها ويُعمَل بموجبها، وكذا الضميرُ في قوله عز وجل: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾.

والجملةُ المؤكَّدة تعليلٌ لِمَا أفادته «كلَّا» ببيانِ علوِّ رتبة القرآن العظيم الذي استغنى عنه مَن تصدَّى عليه الصلاة والسلام له، والجملة الثانية اعتراضٌ جيء به للترغيب في القرآن والحثِّ على حفظه أو الاتعاظ به، واقتران الجملة المعترَض بها بالفاء قد صرَّح به ابن مالك في «التسهيل»[1] من غير نقل اختلافٍ فيه، وكلام الزمخشريِّ في «الكشاف»[2] عند الكلام على قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ [النحل: ٤٣] نصٌّ في ذلك، نعم قيل: إنه قيل له: «فمن شاء ذكره» اعتراضٌ. فقال: لا؛ لأنَّ الاعتراضَ شرطه أن يكون بالواو أو بدونه، فأما بالفاء فلا، أي: وهو استطراد. لكن تعقَّب بأنَّ النقلَ لمنافاته ذلك ليس بثبت، ويمكن أن يكون في القوم مَن يُنكر ذلك، فوافقه تارةً وخالفه أخرى، وما ألطف قولَ السعد في «التلويح»: الاعتراض يكون بالواو والفاء:

واعْلَم فَعِلْم المرء يَنْفَعُه[3]

هذا، وقيل: الضميرُ الأول للسورة أو للآيات السابقة، والثاني للتذكرة، والتذكيرُ لأنها بمعنى الذكر والوعظ، أو لمرجع الأول، والتذكيرُ باعتبارِ كون ذلك قرآناً. ورُجِّح بعدم ارتكابِ التأويل قبل الاحتياج إليه.

وتعقِّب بأنه ليس بذاك، فإن السورةَ أو الآيات وإن كانت متَّصفةً بما سيأتي إن شاء الله تعالى من الصفات الشريفة، لكنها ليست مما أُلقي على مَن استغنى عنه واستحقَّ بسبب ذلك ما سيأتي إن شاء الله تعالى من الدعاء عليه والتعجُّب من كفره المفرِط؛ لنزولها بعد الحادثة.

---

(١) ص١١٣.
(٢) ٢/ ٤١١.
(٣) سلف ١/ ٤٢٨.

وجوَّز كون الضميرين للمعاتبة الواقعة، وتذكيرُ الثاني لكونها عتاباً. وفيه أنه يأباه الوصفُ بالصفات الآتية، وإن كان باعتبارِ أنَّ العتاب وقع بالآيات المذكورة قبلُ وهي متَّصفة بما ذُكر جاء ما سمعتَ آنفاً.

وقيل: لك أن تجعلهما للدعوة إلى الإسلام، وتذكيرُ الثاني لكونها دعاء. وهذا على ما فيه مما يأباه المقام.

وقوله تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ﴾ متعلِّقٌ بمضمَر هو صفةٌ لـ «تذكرة» أو خبرٌ ثانٍ لـ «إنَّ»، أي: كائنةٌ أو مثبتَةٌ في صحفٍ، والمراد بها الصحف المنتَسَخة من اللوح المحفوظ. وعن ابن عباس: هي اللوح نفسه. وهو غيرُ ظاهر.

وقيل: الصحفُ المنزَّلة على الأنبياء عليهم السلام كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦].

وقيل: صحفُ المسلمين، على أنه إخبارٌ بالغيب، فإنَّ القرآن بمكة لم يكن في الصحف، وإنما كان متفرِّقاً في الدفاف والجريد ونحوهما، وأولُ ما جُمع في صحيفةٍ في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وهو كما ترى.

﴿مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣﴾ عند الله عز وجل ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ أي: في السماء السابعة كما قال يحيى بن سلام[1]، أو مرفوعةِ القَدْرِ كما قيل.

﴿مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤﴾ منزَّهة عن مساس أيدي الشياطين، أو عن كلِّ دنسٍ، على ما رُوي عن الحسن. وقيل: عن الشبه والتناقُض، والأول ـ قيل ـ مأخوذٌ من مقابلته بقوله تعالى: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥﴾ أي: كَتَبَةٍ من الملائكة عليهم السلام كما قال مجاهد وجماعة، فإنهم ينسَخون الكتب من اللوح، وهو جمع: سافرٍ، أي: كاتبٍ، والمصدر: السَّفْرُ، كالضرب.

وعن ابن عباس: هم الملائكة المتوسِّطون بين الله تعالى وأنبيائه عليهم السلام، على أنه جمعُ سافرٍ أيضاً بمعنى سفيرٍ، أي: رسولٍ وواسطةٍ، والمشهورُ

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٠٣، والبحر ٨/ ٤٢٨.

في مصدره بهذا المعنى السِّفارةُ بكسر السين وفتحها، وجاء فيه السَّفْر أيضاً كما في «القاموس»[١].

وقيل: هم الأنبياء عليهم السلام لأنهم سُفَراءُ بين الله تعالى والأمة، أو لأنهم يكتبون الوحي. ولا يخفى بعدُه، فإنَّ الأنبياءَ عليهم السلام وظيفتُهم التلقِّي من الوحي لا الكَتْب لِمَا يُوحَى، على أنَّ خاتمهم ﷺ لم يكن يكتب القرآنَ، بل لم يكتب أصلاً على ما هو الشائع، وقد مرَّ تحقيقُه، وكذا وظيفتُهم إرشادُ الأمة بالأمر والنهي، وتعليمُ الشرائع والأحكام، لا مجرَّد السفارة إليهم.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن وهب بن مُنَبِّه أنهم أصحابُ محمد ﷺ[٢]. قيل: لأنهم سفراء ووسائط بينه عليه الصلاة والسلام وبين سائر الأمة، وقيل: لأنَّ بعضَهم يَسْفِر إلى بعضٍ في الخير والتعليم والتعلُّم.

وفي روايةٍ عن قتادة أنَّهم القُرَّاءُ. وكلا القولين ليس بالمعوَّل عليه.

وقد قالوا: هذه اللفظة مختصَّة بالملائكة عليهم السلام لا تكاد تطلق على غيرهم، وإن جاز الإطلاق بحسب اللغة، ومادَّتُها موضوعةٌ بجميع تراكيبها لِمَا يتضمَّن الكشفَ، كسَفَرَت المرأةُ: إذا كشفَت القناعَ عن وجهها.

والباء ـ قيل ـ متعلِّقةٌ بـ «مُطَهَّرَة». وقيل: بمضمَرٍ هو صفةٌ أخرى لـ «صُحُف».

﴿كِرَامِۭ﴾ أي: أعزَّاء على الله تعالى معظَّمين عنده عز وجل، فهو من الكرامة بمعنى التوقير. أو متعطِّفين على المؤمنين يستغفرون لهم ويُرشِدونهم إلى ما فيه الخير بالإلهام، وينزلون بما فيه تكميلُهم من الشرائع، فهو من الكَرَم ضدِّ اللؤم.

﴿بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ أي: أتقياء، وقيل: مطيعين تعالى، من قولهم: فلانٌ يبَرُّ خالقَه، أي: يُطِيعُه، وقيل: صادقين، من: بَرَّ في يمينه.

وهو جمعُ: بَرٍّ، لا غير، وأما أبرار فيكون جمعَ: بَرٍّ، كرَبٍّ وأرباب، وجمع: بارٍّ، كصاحب وأصحاب، وإن منعه بعض النحاة لعدم اطِّراده. واختَصَّ ـ على

---

(١) مادة (سفر).

(٢) الدر المنثور ٦/ ٣١٥.

ما قيل ـ الجمعُ الأولُ بالملائكة والثاني بالآدميين في القرآن ولسان الشارع ﷺ، وكأن ذلك لأنَّ الأبرارَ من صِيَغ القلَّة دون البَرَرَة، ومتَّقو الملائكة أكثر من مُتَّقي الآدميين، فناسَبَ استعمال صيغة القلَّة وإن لم ترد حقيقتها في الآدميين دونهم.

وقال الراغب: خصَّ البررةُ بهم من حيث إنَّه أبلغ من أبرار، فإنه جمعُ: بَرٍّ، وأبرار جمع: بارٍّ، وبرٌّ أبلغ من بارٍّ، كما أنَّ عدلاً أبلغُ من عادل[1]. وكأنه عَنى أنَّ الوصف بـ «بَرٍّ» أبلغ ـ لكونه من قبيل الوصف بالمصدر ـ من الوصف بـ «بار»، لكن قد سمعتَ أنَّ أبراراً يكون جمعَ بَرٍّ كما يكون جمعَ بارٍّ، وأيضاً في كون الملائكة أحقَّ بالوصف بالأبلغ بالنسبة إلى الآدميين مطلقاً بحثٌ.

وقيل: إن الأبرارَ أبلغُ من البررة، إذ هو جمعُ: بارٍّ، والبَرَرَةُ جمع: بَرٍّ، وبارٌّ أبلغُ منه لزيادة بنيته، ولمَّا كانت صفاتُ الكمال في بني آدم تكون كاملةً وناقصةً وُصِفُوا بالأبرار إشارةً إلى مدحهم بأكمل الأوصاف، وأما الملائكة فصفات الكمال فيهم لا تكون ناقصةً فوُصِفوا بالبررة لأنه يدلُّ على أصل الوصف بقطع النظر عن المبالغة فيه لعدم احتياجهم لذلك، وإشارة لفضيلة البشر لِمَا في كونهم أبراراً من المجاهدة وعصيانِ داعي الجِبِلَّة. وفيه ما لا يخفى.

ومن استعمال البَرَرَة في الملائكة ما أخرجه أحمد والبخاريُّ ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الذي يقرأ القرآن وهو ماهرٌ به مع السَّفَرَة الكِرَام البَرَرة، والذي يقرأه وهو عليه شاقٌّ له أجران»[2].

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ دعاءٌ عليه بأشْنع الدعوات وأفظعها ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ تعجيبٌ من إفراطه في الكفران وبيانٌ لاستحقاقه الدعاءَ عليه، والمرادُ به إمَّا مَن استغنى عن القرآن الكريم الذي ذكرت نعوتُه الجليلة الموجبةُ للإقبال عليه والإيمانِ به،

---

(١) المفردات (برر).

(٢) مسند أحمد (٢٤٢١١)، وصحيح البخاري (٤٩٣٧)، وصحيح مسلم (٧٩٨) (٢٤٤)، وسنن أبي داود (١٤٥٤)، وسنن الترمذي (٢٩٠٤)، وسنن النسائي الكبرى (٧٩٩٢)، وسنن ابن ماجه (٣٧٧٩).

وإما الجنسُ باعتبار انتظامه له ولأمثاله من أفراده، ورجِّح هذا بأن الآية نزلت ـ على ما أخرج ابن المنذر عن عكرمة ـ في عتبة بن أبي لهب؛ غاضَبَ أباه فأسلم، ثم استصلحه أبوه وأعطاه مالاً وجهَّزه إلى الشام، فبعث إلى رسول الله ﷺ أنه كافرٌ بربِّ النَّجْم إذا هوى، فقال ﷺ: «اللَّهم ابعث عليه كَلْبَك حتى يفترسَه». فلمَّا كان في أثناء الطريق ذكر الدعاءَ، فجعل لمن معه ألفَ دينارٍ إن أصبح حيًّا، فجعلوه وسط الرفقة، والمتاعُ حولَه، فأقبل أَسَدٌ إلى الرحال ووثب، فإذا هو فوقه فمزَّقه، فكان أبوه يندبه ويبكي عليه، ويقول: ما قال محمد ﷺ شيئاً قطُّ إلا كان(١).

وسيأتي إن شاء الله تعالى خبرٌ في هذه القصَّة أطولُ من هذا الخبر فلا تغفل.

ثم إنَّ هذا كلامٌ في غاية الإيجاز، وقد قال جار الله: لا نرى أسلوباً أغلظَ منه، ولا أدلَّ على سخطٍ ولا أبعدَ شوطاً في المذمَّة مع تقارُب طرفيه، ولا أجمعَ لِلَّائِمَة على قِصَر مَتْنِه(٢). حيث اشتمل على ما سمعتَ من الدعاء مراداً به ـ إذ لا يُتصوَّر منه تعالى ـ لازمُه، وعلى التعجُّب المراد به ـ لاستحالته عليه سبحانه ـ التعجيبُ لكلِّ سامع.

وقال الإمام: إنَّ الجملة الأولى تدلُّ على استحقاقهم أعظمَ أنواع العقاب عرفاً، والثانيةُ تنبيهٌ على أنَّهم اتصفوا بأعظم أنواع القبائح والمنكرات شرعاً(٣).

ولم يُسمَع ذلك قبل نزول القرآن، وما نسب إلى امرئ القيس من قوله:

يتمنَّى المرءُ في الصيفِ الشتا ... فإذا جاء الشتا أنْكَرَهْ
فهو لا يرضى بحالٍ واحدٍ ... قُتِل الإنسانُ ما أكْفَرَهْ(٤)

---

(١) عزاه لابن المنذر السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ٣١٥ مختصراً، وأخرجه بنحوه عن عكرمة صاحب الأغاني ١٦/ ١٧٦، وروى فيه عكرمة قصة خروجه إلى الشام عن ابن عباس. وأخرجه بنحوه أيضاً الحاكم في المستدرك ٢/ ٥٣٩ عن أبي نوفل بن أبي عقرب، عن أبيه، وفيه أن اسمه: لهب بن أبي لهب، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٨، والبحر ٨/ ٤٢٨.

(٢) الكشاف ٤/ ٢١٩.

(٣) التفسير الكبير ٣١/ ٥٩.

(٤) حاشية الشهاب ٨/ ٣٢٣، وورد صدر البيت الثاني في هامش الأصل برواية: لا بذا رَضِي

لا أصلَ له، ومَن له أدنى معرفة بكلام العرب لا يجهل أن قائل ذلك مُولَّد أراد الاقتباس، لا جاهليٌّ.

وجوَّز بعضهم أن يكون قولُه تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ خبراً عن أنه سيقتل الكفارُ بإنزال آية القتال، وعُبِّر بالماضي مبالغةً في أنه سيتحقَّق ذلك. وليس بشيء، ونحوه ما قيل: إنَّ «ما» استفهاميةٌ، أي: أيُّ شيء أكفره؟ أي: جعله كافراً، بمعنى: لا شيءَ يُسوِّغ له أن يكفر.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ شروعٌ في بيان إفراطه في الكُفرَان بتفصيلِ ما أفاض عز وجل عليه من مبدأ فطرته إلى منتهى عمره من فنون النعَم الموجبة لأنْ تُقابَل بالشكر والطاعة من إخلاله بذلك.

والاستفهامُ - قيل - للتحقير، وذِكْرُ الجواب أعني قولَه تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾ لا يقتضي أنه حقيقيٌّ؛ لأنه ليس بجوابٍ في الحقيقة بل على صورته، وهو بدلٌ من قوله سبحانه: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾. وجوِّز أن يكون للتقرير، والتحقيرُ مستفادٌ من «شيءٍ» المنكَّر، وقيل: التحقير يُفهم أيضاً من قوله سبحانه: ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ إلخ، أي: من أيِّ شيءٍ حقيرٍ مَهينٍ خَلَقَه، من نطفة مَذِرةٍ خَلَقَه.

﴿فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ فهيَّأه لِمَا يصلُح له ويليق به من الأعضاء والأشكال، فالتقدير بمعنى التهيئة لِمَا يصلح - ولذا ساغ عطفُه بالفاء - دون التسوية؛ لأنَّ الخَلْق بمعنى التقدير بهذا المعنى أو يتضمَّنه فلا تصلح الفاءُ. وجوِّز أن يكون هذا تفصيلاً لِمَا أجمل أولاً في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ أي: فقدَّره أطواراً إلى أن أتمَّ خلقَه.

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾ أي: ثم سهَّل مخرجَه من البطن - كما جاء في روايةٍ عن ابن عباس - بأنْ فَتَحَ فم الرحم ومدَّد الأعصاب في طريقه ونكس رأسَه لأسفلَ بعد أن كان في جهة العلوّ[1].

= ولا رَضِيَ بِذَا. وهذان البيتان نسبهما الذهبي في تاريخ الإسلام ١٣/ ٩٣٧ لجمال الدين النحوي.

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ١١١ مختصراً.

وعن ابن عباس أيضاً وقتادة وأبي صالح والسدِّي: المرادُ بـ «السبيل» سبيلُ النظر القويم المؤدِّي إلى الإيمان، وتيسيرُه له هو هبةُ العقل وتمكينُه من النظر[1].

وقال مجاهد والحسن وعطاء ـ وهو رواية عن الحبر أيضاً ـ: هو سبيلُ الهدى والضلال[2]، أي: سهَّل له الطريقَ الذي يريد سلوكَه من طريق الخير والهدى، وطريقِ الشرِّ والضلال، بأن أقْدَره عز وجل على كلٍّ ومكَّنه منه، والإقدار على المراد نعمةٌ ظاهرةٌ بقطع النظر عن خيريَّته وشَرِّيَّته، فلا يَرِد عليه أنه كيف يُعدُّ تسهيلُ طريق الشرِّ والضلال من النعم؟

وقيل: إنه عُدَّ منها لأنه لو لم يكن مسهَّلاً كسبيل الخير لم يستحقَّ المدحَ والثواب بالإعراضِ عنه وتركِه. وهو مبنيٌّ على القول بأنَّ ترك المحرَّم كالزنى مع عدم القدرة عليه لعِنَّةٍ مثلاً لا يثاب عليه. وقيل: يثاب ويُمدح عليه إذا قدَّر التارك في نفسه أنَّه لو تمكَّن لم يفعل. وقال بعضهم: العجزُ عن الشرِّ نعمة، وأنشد:

جكونَه شُكْرِ إين نعمت كِزَارَمْ   كه زورِ مَرْدُم آزاري نَدَارَمْ[3]

ونصبُ «السبيل» بمضمَرٍ يفسِّره الظاهر، وفيه مبالغةٌ في التيسير وتمكينٌ في النفس بسببِ التكرير، قيل: وفي تعريفه باللام دون الإضافة إشعارٌ بعُمومه، فإنَّه لو قيل: سَبيلَه، أَوْهَم أنَّه على التوزيع وأنَّ لكلِّ إنسانٍ سبيلاً يخصُّه. وخَصَّ بعضُهم هذه النكتةَ بالمعنى الأخير لـ «السبيل» فتدبَّر، وعلى هذا المعنى قيل: إنَّ فيه إيماءً إلى أنَّ الدنيا طريقٌ، والمقصد غيرها؛ لِمَا أشعرت به الآية من أنَّ الميسَّر سبيلُ المكلَّفين الذي يترتَّب عليه الثواب والعقاب. وفيه خفاءٌ.

وأيَّاما كان فالضميرُ المنصوب في «يسَّره» لـ «السبيل»، وليس في التفكيك لَبْسٌ حتى يكون نقصاً في البيان.

---

(١) البحر ٨/ ٤٢٨.

(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ١١٢-١١٣، والنكت والعيون ٦/ ٢٠٦.

(٣) قوله: جكَونه، بالجيم والكاف الفارسيتين، معناه: كيف. إين، أي: هذا، أو هذه. زارم: فعل ماضٍ، بمعنى عجزتُ أو ضَعُفت. زور: قوة، مَقْدِرة. مردُم: إنسان، رجل. ندارم: لا أعرف. آزار: إيذاء. ومعنى البيت: كيف أؤدي شكرَ نعمةِ ضَعفي وعجزي عن إيذاء الناس.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ٢١﴾ أي: جعله ذا قبرٍ تُوارى فيه جِيفتُه تكرمةً له، ولم يجعله مطروحاً على الأرض يستقذره مَن يراه وتَقتسمه السباع والطيرُ إذا ظفرت به كسائر الحيوان، والمراد من جعله ذا قبرٍ أمرُه عز وجل بدفنه، يقال: قَبَر الميتَ: إذا دفنه بيده، ومنه قول الأعشى:

لـو أسـنَـدَت مَـيْـتـاً إلـى نَـحْـرِهـا عـاش ولـم يُـنـقَـل إلـى قـابِـرِ[1]

وأقْبره: إذا أمر بدفنه أو مَكَّن منه، ففي الآية إشارةٌ إلى مشروعية دفن الإنسان، وهي مما لا خلافَ فيه، وأمَّا دَفْنُ غيره من الحيوانات فقيل: هو مباحٌ لا مكروه، وقد يُطلب لأمرٍ مشروع يَقتضيه، كدفع أذى جيفتِه مثلاً.

وعدُّ الإماتةِ من النعم لأنها وصلةٌ في الجملة إلى الحياة الأبدية والنعيم المقيم.

وخُصَّت هذه النعم بالذكر لِمَا فيها من ذكر أحوال الإنسان من ابتدائه إلى انتهائه، وما تتضمَّن من النعم التي هي محضُ فضلٍ من الله تعالى، فإذا تأمَّل ذلك العاقل علم قُبحَ الكفر وكفرانِ نعم الربِّ سبحانه وتعالى، فشَكَره جلَّ وعلا بالإيمان والطاعة.

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ٢٢﴾ أي: إذا شاء إنشارَه أنشره، على القاعدة المعروفة في حذف مفعول المشيئة، وفي تعليق الإنشار بمشيئته تعالى إيذانٌ بأنَّ وقتَه غيرُ معيَّنٍ أصلاً، بل هو تابعٌ لها، وهذا بخلاف الإماتة فإنَّ وقتها معيَّنٌ إجمالاً على ما هو المعهود في الأعمار الطبيعيَّة، وكذا الحال في وقت الإقبار بل هو أظهر في ذلك.

وقرأ شعيب بن الحَبْحاب[2] كما في «كتاب اللوامح» وابن أبي حمزة كما في تفسير ابن عطية: «نَشَرَه» بدون همزة[3]، وهما لغتان في الإحياء.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ للإنسان عمَّا هو عليه من كفران النعم البالغ نهايتَه، وقوله سبحانه: ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ٢٣﴾ بيانٌ لسبب الردع، و«لمَّا» نافيةٌ جازمةٌ،

---

(١) ديوان الأعشى ص١٨٩، ومجاز القرآن ٢/ ٢٨٦، وتفسير الطبري ٢٤/ ١١٣.

(٢) تحرفت في (م) إلى: الحجاب. والمثبت من الأصل والبحر ٨/ ٤٢٩.

(٣) المحرر الوجيز ٦/ ٤٣٩، والبحر ٨/ ٤٢٩. وابن أبي حمزة هو شعيب بن دينار أبو بشر الحمصي الكاتب. توفي سنة (١٦٣هـ). السير ٧/ ١٨٩.

ونفيها غيرُ منقطع، و«ما» موصولةٌ، وضميرُ «أمره» إما للإنسان كالمستتر في «يَقْضِ»، والعائدُ إلى الموصول محذوفٌ، أي: به، أو للموصول على الحذف والإيصال، والعائدُ إلى الإنسان محذوفٌ، أي: إياه، قيل: والثاني أحسن؛ لأنَّ حذف المفعول أهون من حذف العائد إلى الموصول، والمراد بـ «ما أمره» جميعُ ما أمره، والمعنى على ما قال غير واحد: لم يَقْضِ من أول زمانِ تكليفه إلى زمان إماتته وإقباره. أو: من لدن آدم عليه السلام إلى هذه الغاية مع طول المدى وامتداده جميعَ ما أمره، فلم يَخرُج من جميع أوامره تعالى، إذ لا يخلو أحدٌ عن تقصيرٍ ما، ونُقل هذا عن مجاهد وقتادة، وفيه حملُ عدم القضاء على نفي العموم.

وتعقِّب بأنه لا ريبَ في أنَّ مساق الآيات الكريمة لبيان غاية عظم جناية الإنسان وتحقيقِ كفرانه المفرط المستوجب للسخط العظيم، وظاهرٌ أنَّ ذلك لا يتحقَّق بهذا القدر من نوع تقصيرٍ لا يخلو عنه أحدٌ من أفراده. واختير أن يُحمل عدم القضاء على عموم النفي، إمَّا على أنَّ المحكوم عليه هو الإنسان المستغني أو هو الجنس لكن لا على الإطلاق، بل على أنَّ مصداقَ الحكم بعدم القضاء بعضُ أفراده وقد أُسنِد إلى الكلِّ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وإما على أنَّ مصداقه الكلُّ من حيث هو كلٌّ بطريق رفع الإيجاب الكلِّيِّ دون السلب الكلِّي، فالمعنى: لمَّا يقضِ جميعُ أفراده ما أمره، بل أخلَّ به بعضُها[1] بالكفر والعصيان مع أنَّ مقتضى ما فصِّل من فنون النعماء الشاملة للكلِّ أن لا يتخلَّف عنه أحدٌ.

وعن الحسن أنَّ «كلَّا» بمعنى: حَقًّا، فيتعلَّق بما بعده، أي: حَقًّا لم يعمل بما أمره به.

وقال ابن فورك: الضمير في «يَقْضِ» تعالى، أي: لم يَقضِ اللهُ تعالى لهذا الكافر ما أمره به من الإيمان، بل أمره إقامةً للحجَّة عليه بما لم يقضِ له. ولا يَخفى بعدُه، والظاهر عليه أنَّ «كلَّا» بمعنى: حَقًّا، أيضاً.

---

(١) أي: بعض الأفراد، كما أشير إلى ذلك في الأصل.

وقوله سبحانه: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾ على معنى: إذا كان هذا حال الإنسان وهو أنه إلى الآن لم يقض ما أمره مع أنَّ مقتضى النعم السابقة القضاءُ، فلينظر إلى طعامه.. إلخ لعلَّه يقضي.

وفي «الحواشي العصامية»: لا يخفى ما في قوله تعالى: (لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ) من كمال تَهْييج الإنسان وتحريضه على امتثالِ ما يعقبه من الأمر بالنظر، وتفريعُ الأمر عليه مبنيٌّ على أنَّ الائتمارَ كما ينبغي إنما[1] يتيسَّر بعد الارتداع عمَّا هو عليه. والظاهر أنَّ المرادَ بالإنسان هنا نحو ما أريد به في قوله تعالى: (قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ).

ولَمَّا جوَّز صاحبُ الحواشي المذكورة حملَ عدم القضاء على السلب الكليِّ، وجَعَل الكلامَ في الإنسان المبالِغ في الكفر، قال: فالمراد بضمير «يَقْضِ» غيرُ الإنسان الذي أُمر بالنظر، فإنه عامٌّ فلذا أُظهِر.

وتضمَّن ما مرَّ ذكرَ النعم الذاتيَّة، أي: ما يتعلَّق بذات الإنسان من الذات نفسها ولوازمها، وهذا ذكرَ النعم الخارجية المقابلة لذلك، وقيل: الأولى نِعَمٌ خاصَّة، والثانية نِعَمٌ عامَّةٌ.

وقيل: تلك نِعَمٌ متعلِّقةٌ بالحدوث، وهذه نِعَمٌ متعلِّقة بالبقاء. وفيه نظر.

والظاهر أنَّ المرادَ بالطعام: المطعومُ بأنواعه، واقتصر عليه ولم يُذكَر المشروب؛ لأنَّ آثار القدرة فيه أكثر من آثارها في المشروب، واعتبار التغليب لا يخفى ما فيه، وقوله تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ﴾ بدلٌ منه بدلَ اشتمال، فإنه ـ لكونه من أسباب تكوُّنِه ـ كالمشتمل عليه، والعائد محذوف، أي: صَبَبْنا له.

وجوِّز كونه بدلَ كلٍّ من كلٍّ، على معنى: فلينظر الإنسان إلى إنعامنا في طعامه، أنا صَبَبْنا.. إلخ. وهو كما ترى.

وأيًّاما كان، فالمقصود بالنظر هو البدل، وبذلك يضعف ما رُوي عن أبيٍّ وابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم أنَّ المعنى: فلينظر إلى طعامه إذا صار رجيعاً،

---

(١) في (م): أن، وهو تصحيف.

ليتأمَّل عاقبةَ الدنيا وما تَهالك عليه أهلُها[١]. ولعمري إنَّ هذا بعيدُ الإرادة عن السياق، ولا أظن أنه وقع على صحَّة روايته عن هؤلاء الأجلَّة الاتفاقُ.

وظاهر الصَّبِّ يقتضي تخصيصَ الماء بالغيث، وهو المرويُّ عن ابن عباس، وجوَّز بعضهم إرادةَ الأعمِّ، وقال: إنَّ في كلِّ ماء صبًّا من الله تعالى بخَلْق أسبابه على أصول النباتات. وأنت تعلم أنَّ إيصال الماء إلى أصول النباتات يَبعد تسميتُه صبًّا.

وتأكيد الجملة للاعتناء بمضمونها مع كونها مظنَّةً لإنكار القاصر لعدم الإحساس بفعلٍ من الله تعالى، وإنما يُعْرَفُ الاستنادُ إليه عز وجل بالنظر الصحيح.

وقرأ الأكثر: «إنَّا» بالكسر على الاستئناف البيانيِّ[٢]، كأنَّه لمَّا أمر سبحانه بالنظر إلى ما رزقه جل وعلا من أنواع المأكولات، قيل: كيف أُحْدِثَ ذلك وأُوجدَ بعد أن لم يكن. فقيل: إنَّا صببنا.. إلخ.

وقرأ الإمام الحسين بن أمير المؤمنين عليٍّ كرم الله تعالى وجههما ورضي سبحانه عنهما: «أنَّى صَبَبْنَا» بفتح الهمزة والإمالة[٣]، على معنى: فلينظر الإنسان كيف صببنا الماء.

﴿صَبًّا ﴿٢٥﴾﴾ عجيباً ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ﴾ أي: بالنبات، كما قال ابن عباس ﴿شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾ بديعاً لائقاً بما يشقُّها من النبات صغراً وكبراً وشكلاً وهيئة. وقيل: شَقّها بالكِراب[٤]، وإسناده إلى ضميره تعالى مجازٌ من باب الإسناد إلى السبب، وإن كان الله تعالى عز وجل هو الموجِد حقيقةً، فقد تبيَّن في موضعه أنَّ إسناد الفعل حقيقةً لمن قام به، لا مَن صدر عنه إيجاداً[٥]، ولهذا يشتقُّ اسم الفاعل له.

---

(١) البحر ٨/ ٤٢٩.

(٢) التيسير ص٢٢٠، والنشر ٢/ ٣٩٨، وقرأ بفتح الهمزة عاصم وحمزة والكسائي وخلف.

(٣) الكشاف ٤/ ٢١٩، والبحر ٨/ ٤٢٩.

(٤) بكسر الكاف، مصدر كربتُ الأرض: إذا قَلبْتَها للحرث. حاشية الشهاب ٨/ ٣٢٤.

(٥) قوله: لا من صدر عنه إيجاداً، أي: لا لمن أوجده. حاشية الشهاب ٨/ ٣٢٤.

وتعقّب بأنه يأباه كلمةُ «ثم» والفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧﴾، فإنَّ الشقَّ بالمعنى المذكور لا ترتُّب بينه وبين الإمطار أصلاً، ولا بينه وبين إنبات الحبِّ بلا مهلة، فإنَّ المراد بالنبات ما نبت من الأرض إلى أن يتكامَل النموُّ وينعقد الحَبُّ، فإنَّ انشقاق الأرض بالنبات لا يزال يتزايد ويتسع إلى تلك المرتبة، على أنَّ مساق النظم الكريم لبيان النعم الفائضة من جنابه تعالى على وجهٍ بديعٍ خارج عن العادات المعهودة، كما ينبئ عنه إردافُ الفعلَين بالمصدرَين، فتوسيطُ فعل المنعَم عليه في حصول تلك النعم مُخلٌّ بالمرام، وللبحث فيه مجالٌ.

وقيل عليه أيضاً: إنَّ الشق بالكراب لا يظهر في العنب والزيتون والنخل.

وأجيب بأنه ليس من لوازم العطف تقييد المعطوف بجميع ما قُيِّد به المعطوف عليه، ويحتمل أن يكون ذكرُ الكِراب في القيل على سبيل التمثيل، أو أريد به ما يشمل الحفرَ.

وجوِّز أن يكون المراد شقَّها بالعيون، على أنَّ المراد بصبِّ الماء إمطارُ المطر، وبهذا إجراءُ الأنهار. وتعقِّب بأنَّه يأباه ترتُّبُ الشقِّ على صبِّ الماء بكلمة التراخي، وأيضاً ترتُّب الإنبات على مجموع الصبِّ والشقِّ بالمعنى المذكور لا يلائم قولَه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا﴾ الآية [النبأ: ١٤-١٥] لإشعاره باستقلال الصبِّ وإنزالِ الغيث في ذلك. ودفعا بأنَّ ماء العيون من المطر لا من الأبخرة المحتبسة في الأرض. ولا يخفى على ذي عين أنَّ هذا الوجه بعيدٌ متكلَّف.

والمراد بالحبِّ جنسُ الحبوب التي يُتقوَّت بها وتُدَّخَر كالحنطة والشعير والذرة وغيرها.

﴿وَعِنَبًا﴾ معروفٌ ﴿وَقَضْبًا ۝٢٨﴾ أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال: هو الفِصْفِصَة[1]. وقيَّدها الخليلُ بالرطبة، وقال: إذا يَبست

---

(١) الدر المنثور ٦/٣١٦، وتفسير الطبري ٢٤/١١٦. وورد في هامش الأصل: الفِصْفَصَةُ، وتقال بالسين، وتسمَّى بالتركية: بونجه، وبالفارسية: إسْبسْت. اهـ. وقال الشهابي في معجم =

فهي القتُّ[١]. وسمِّيت بمصدرِ قَضَبَه، أي: قطعه، مبالغةً، كأنها لتكرُّر قطعها وتكثُّره نفسُ القطع. وضَعَّف هذا مَن فسَّر الأبَّ بما يشمل ذلك.

وقيل: هو كلُّ ما يُقضَب ليأكله ابن آدم غضًّا من النبات كالبقول والهَلْيَون[٢].

وفي «البحر» عن الحِبْر أنه الرطب، وهو يُقضَب من النخل، واستأنس له بذكره مع العنب[٣]. ولا يخفى ما فيه.

﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩﴾ هما معروفان ﴿وَحَدَآئِقَ﴾ رياضاً ﴿غُلْبًا ۝٣٠﴾ أي: عظاماً، وأصله جمعُ: أغْلَب وغَلْباء صفةُ العنق، وقد يوصف به الرجل لكن الأول هو الأغلب، ومنه قول الأعشى:

يَمشي بها غُلْبُ الرِّقاب كأنَّهم ... بُزلٌ كُسِينَ من الكُحَيلِ جِلالَا[٤]

ووصْفُ الحدائق بذلك على سبيل الاستعارة، شُبِّه تكاثُفُ أوراق الأشجار وعروقها بغِلَظ الأوداج، وانتفاخ الأعصاب مع اندماج بعضها في بعضٍ في غِلَظ[٥] الرقبة، ولا يَرِد أنَّ الغلظ في الأشجار أقوى؛ لأنَّ الأمر بالعكس نظراً إلى الاندماج وتقوِّي البعض بالبعض حتى صارت شيئاً واحداً.

= الألفاظ الزراعية ص٤٠١: الفصفصة جنس نبات كلئيَّة عُشبيَّةٍ من القرنيات، فيه أنواع تزرع، وأنواع تنبت، والفصفصة الزراعية هي الفصَّة في الشام، والبرسيم الحجازي في مصر.

(١) العين ٥/ ٥٢، و٥/ ١٩.

(٢) قال الشهابي في معجمه ص٦٠: هليون: جنس نبات من الفصيلة الزنبقية والقبيلة الهليونية، فيه نوع زراعي مشهور، وأنواع للتزيين، وأنواع برية يتبقّلونها ويستعملونها.

(٣) البحر ٨/ ٤٢٩.

(٤) كذا نسبه للأعشى، وهو في الكشاف ٤/ ٢٢٠، وتفسير القرطبي ٢٢/ ٨٥، والبحر ٨/ ٤٢٥، والدر المصون ١٠/ ٦٩٤ عن عمرو بن معد يكرب. وورد في البحر والدر: يسعى، بدل: يمشي، وفي البحر: الشعور، بدل: الكحيل. وبُزُلٌ: جمع بَزول، وهو جمل أو ناقة في تاسع سنه. القاموس (بزل). والكُحَيل: ورد في هامش الأصل و(م): مصَغَّر، وهو النفط يطلى به الجرب. اهـ منه. والجِلال: جمع جلٍّ (بضم الجيم وفتحها) ما تُلبسه الدابة لتصان به. القاموس (جلل).

(٥) كذا في الأصل و(م): في غلظ، ولعل الصواب: بغلظ، كما في حاشية الشهاب ٨/ ٣٢٥.

وجوِّز أن يكون هناك مجازٌ مرسل كما في المَرْسِن، بأن يراد بالأغلَب الغليظُ مطلقاً، وتجوِّز في الإسناد أيضاً؛ لأنَّ الحدائق نفسَها ليست غليظةً بل الغليظُ أشجارُها. وقال بعض: المراد بالحدائق نفس الأشجار لمكان العطف على ما في حيِّز «أنبتنا» فلا تغفل.

﴿وَفَٰكِهَةً﴾ قيل: هي الثمار كلُّها. وقيل: بل هي الثمار ما عدا العِنَب والرمان. وأيَّاما كان فذكرُ ما يدخل فيها أولاً للاعتناء بشأنه.

﴿وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾ عن ابن عباس وجماعة أنَّه الكلأ والمرعى[(١)]، من: أبَّه: إذا أمَّه وقصده؛ لأنه يُؤَمُّ ويقصد. أو من: أبَّ لكذا: إذا تهيأ له؛ لأنَّه متهيِّئٌ للرعي، ويطلق على نفس مكان الكلأ، ومنه قوله:

جِـذْمُـنـا قـيـسٌ ونـجـد دارنـا ... ولـنـا الأبُّ بـهـا والـمَـكْـرَعُ[(٢)]

وذكر بعضهم أنَّ ما يأكله الآدميُّون من النبات يسمَّى الحصيدةَ والحصيد، وما يأكله غيرهم يسمَّى الأبَّ، وعليه قول بعض الصحابة يمدح النبيَّ ﷺ:

لـه دعوةٌ مـيـمـونـةٌ ريحُـهـا الـصـبـا ... بـهـا يُنبِت الله الـحـصـيـدةَ والأبَّا[(٣)]

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك أنه التِّبْن خاصَّة[(٤)].

وقيل: هو يابسُ الفاكهة؛ لأنها تُؤَبُّ وتُهيَّأ للشتاء للتفكُّه بها.

وأخرج أبو عبيد في فضائله وعبد بن حميد عن إبراهيم التيميِّ قال: سُئل

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ١٢١-١٢٢، وهو قول الحسن ومجاهد أيضاً.

(٢) جمهرة اللغة ١/ ١٣، وتهذيب اللغة ١٥/ ٥٩٩، والكشاف ٤/ ٢٢٠، والبحر ٨/ ٤٢٥، والكلام منه. وورد في هامش الأصل و(م): جِذْمُنا: بكسر الجيم، أي: أصلنا. اهـ منه. وكذا هو في القاموس (جذم). والمَكرَع: مفعل من الكرَع وهو ماء السماء يُكرَع فيه. اللسان (كرع).

(٣) البيت في النكت والعيون ٦/ ٢٠٨، وتفسير القرطبي ٢٢/ ٨٦، والبحر ٨/ ٤٢٥ دون نسبة، وهو في الوافي بالوفيات ١١/ ٣٣٢ لحرب بن رَيطة، قدم على النبي ﷺ مع جماعة من أهله، ولقوه بين الجحفة والمدينة. ذكره الحافظ في ابن حجر في الإصابة ٢/ ٢٢٦.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٣١٧.

أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن الأبِّ ما هو؟ فقال: أيُّ سماءٍ تُظلُّني وأيُّ أرضٍ تُقلُّني إذا قلتُ في كتاب الله تعالى ما لا أعلم(١).

وأخرج ابن سعد وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وغيرهم عن أنس أنَّ عمر رضي الله عنه قرأ على المنبر: ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا﴾ إلى قوله: ﴿وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾ فقال: كلٌّ هذا قد عرفناه، فما الأبُّ؟ ثم رفض عصا كانت في يده، فقال: هذا لعَمْر الله هو التكلُّف، فما عليك يا ابن أمِّ عمر أن لا تدري ما الأبُّ، ابتغوا ما بيِّن لكم من هذا الكتاب فاعملوا به، وما لم تعرفوه فَكِلُوه إلى ربِّه(٢).

وفي «صحيح البخاري» من رواية أنس أيضاً: أنه قرأ ذلك وقال: فما الأبُّ؟ ثم قال: ما كُلِّفنا، أو: ما أُمرنا بهذا(٣).

ويتراءى من ذلك النهيُ عن تتبُّع معاني القرآن والبحثِ عن مشكلاته، وفي «الكشاف»: لم يَذهب إلى ذلك، ولكن القوم كانت أكبرُ همَّتهم عاكفةً على العمل، وكان التشاغل بشيء من العلم لا يعمل به تكلُّفاً [عندهم]، فأراد رضي الله عنه أنَّ الآية مسوقة في الامتنان على الإنسان بمطعمه واستدعاء شكره، وقد عُلم من فحواها أنَّ الأبَّ بعضُ ما أنبت سبحانه للإنسان متاعاً له أو لأنعامه، فعليك بما هو أهمُّ من النهوض بالشكر له عز وجل على ما تبيَّن لك ولم يُشْكِل مما عدَّد من نعمه تعالى،

---

(١) الدر المنثور ٦/٣١٧، وفضائل القرآن ص٢٢٧، وفيه انقطاع بين إبراهيم التيمي وأبي بكر رضي الله عنه.

(٢) الدر المنثور ٦/٣١٧، وطبقات ابن سعد ٣/٣٢٧، وفضائل القرآن ص٢٢٧، وسنن سعيد بن منصور (٤٣ - تفسير)، وتفسير الطبري ٢٤/ ١٢٠، والمستدرك ٢/ ٥٥٩، وهو في شعب الإيمان (٢٢٨١)، وتاريخ بغداد ١١/٤٦٨-٤٦٩.

(٣) وهم المصنف في إحالة هذا اللفظ على البخاري، إذ إن البخاري رواه برقم (٧٢٩٣) عن أنس بلفظ: كنا عند عمر، فقال: نُهينا عن التكلُّف. مختصراً. وما أورده المصنف هو لفظ الحميدي الذي أورده في الجمع بين الصحيحين (٦١) بعد ذكر رواية البخاري، قال: وفي رواية عن ثابت عن أنس أنَّ عمر قرأ: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾... إلخ. اهـ. وهذه الرواية أخرجها الإسماعيلي في المستخرج من طريق هشام عن ثابت، كما قال الحافظ في الفتح ١٣/ ٢٧١.

ولا تتشاغلْ عنه بطلب معنى الأبِّ ومعرفة النبات الخاصِّ الذي هو اسمٌ له، واكتفِ بالمعرفة الجمليَّة إلى أن يتبيَّن لك في غير هذا الوقت، ثم وصَّى الناسَ بأن يَجْرُوا على هذا السَّنَنِ فيما أشبه ذلك من مشكلات القرآن[١]. انتهى.

وهو قُصارى ما يقال في توجيه ذلك، لكن في بعض الآثار عن الفاروق كما في «الدر المنثور»[٢] ما يبعدُ فيه ـ إن صحَّ ـ هذا التوجيه.

بقي شيء وهو أنه ينبغي أن يعلم[٣] أنَّ خفاء تعيين المراد من الأبِّ على الشيخين رضي الله عنهما ونحوها من الصحابة، وكذا الاختلاف فيه، لا يستدعي كونَه غريباً مُخلًّا بالفصاحة وأنَّه غيرُ مستعمل عند العرب العرباء، وقد فسَّره ابن عباس لابن الأزرق بما تعتلف منه الدوابُّ، واستشهد له بقول الشاعر:

ترى به الأبَّ واليقطينَ مُختلِطا[٤]

ووقع في شعر بعض الصحابة كما سمعتَ، ومَن تتبَّع وجد غير ذلك.

﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ قيل: إما مفعولٌ له، أي: فَعَل ذلك تمتيعاً لكم ولمواشيكم. فإنَّ بعضَ النعم المعدودة طعامٌ لهم وبعضَها علفٌ لدوابِّهم، ويوزِّع وينزِّل كلٌّ على مقتضاه، والالتفات لتكميل الامتنان. وإما مصدرٌ مؤكِّدٌ لفعله المضمَر بحذف الزوائد، أي: متَّعكم بذلك متاعاً، أو لفعلٍ مرتَّبٍ عليه، أي: فتمتَّعتُم بذلك متاعاً، أي: تمتُّعاً. أو مصدرٌ من غير لفظه، فإنَّ ما ذُكر من الأفعال الثلاثة في معنى التمتيع، وقد مرَّ الكلام في نظيره. فتذكَّر[٥].

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٢٠، وما سلف بين حاصرتين منه.
(٢) ينظر ٦/ ٣١٦.
(٣) قوله: أن يعلم، ليس في (م).
(٤) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣١٦ للطستي في مسائله، وهو في الإتقان ١/ ٤١١-٤١٢، وتمام البيت:

على الشريعة يجري تحتها الغَرْبُ

والشريعة: مورد الشاربة. وهم قوم يسكنون على ضفة النهر. والغرب: الدلو العظيمة. القاموس (شرع) و(غرب).
(٥) ينظر تفسير الآية (٣٣) من سورة النازعات.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾ شروعٌ في بيانِ أحوال معادهم بعد بيان ما يتعلَّق بخَلْقِهم ومعاشهم، والفاء للدلالة على ترتُّب ما بعدها على ما يُشعر به لفظ المتاع من سرعة زوال هاتيك النعم وقربِ اضمحلالها، و«الصاخَّة» هي الداهيةُ العظيمة، من صَخَّ بمعنى أصاخ، أي: استَمَع، والمراد بها النفخة الثانية، ووُصِفت بها لأنَّ الناسَ يَصِخُّون لها فجُعلت مُستَمِعةً مجازاً في الطرف أو الإسنادِ.

وقال الراغب: الصاخَّةُ: شدَّةُ صوت ذي النطق، يقال: صخَّ يَصِخُّ فهو صاخٌّ[1]. فعليه هي بمعنى الصائحة مجازاً أيضاً.

وقيل: مأخوذةٌ من صخَّه بالحجر، أي: صكَّه.

وقال الخليل: هي صيحةٌ تصخُّ الآذانَ صخًّا، أي: تُصِمُّها لشدَّة وقعتها[2]. ومنه أخذ الحافظ أبو بكر بن العربي قولَه: الصاخَّة هي التي تُورِث الصمَمَ، وإنَّها لمُسمِعة، وهو من بديع الفصاحة كقوله:

أصمَّ بك الدَّاعي وإن كان أسْمَعا[3]

ثم قال: ولعمْرُ الله تعالى إنَّ صيحةَ القيامة مُسمِعة تُصِمُّ عن الدنيا وتُسمِع أمورَ الآخرة[4].

والكلام في جواب «إذا» وفي «يوم» من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ أي: زوجته ﴿وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ على نحو ما تقدَّم في «النازعات»، فتذكَّره فما في العهد من قدم[5]. أي: يومَ يُعرِض عنهم ولا يصاحبهم ولا يَسأل

---

(١) المفردات (صخخ).

(٢) العين ٤/ ١٣٥.

(٣) صدر بيت لأبي تمام، وهو في ديوانه بشرح التبريزي ٤/ ٩٩، ولفظ البيت فيه وفي الأغاني ١٦/ ٣٨٧، والوافي بالوفيات ١٢/ ٤٢٩، ومعجم الأدباء ٨/ ٨٨، والحماسة البصرية ١/ ٢٣٥، وتفسير القرطبي ٢٢/ ٨٩، والبحر المحيط ٨/ ٤٢٩: الناعي. بدل: الداعي. وعجزه:

وأصبح مَغْنى الجُودِ بعدَك بَلْقَعا

(٤) تفسير القرطبي ٢٢/ ٨٩، والبحر ٨/ ٤٢٩، وعنه نقل المصنف.

(٥) ينظر: ٣٠/ ٣٥.

عن حالهم كما في الدنيا؛ لاشتغاله بحال نفسه كما يُؤذِن به قولُه تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧﴾ فإنَّه استئنافٌ واردٌ لبيان سبب الفرار، وجَعْلُه جوابَ «إذا» والاعتذارُ عن عدم التصدير بالفاء بتقدير الماضي بغير «قد» أو المضارعِ المثبتِ، أو بإلغاء[1] إبدالِ «يومَ يَفِرُّ المرء» عنه إياه؛ لأنَّ البدل لا يطلب جزاءً = لا يخفى حاله على مَن شرط الإنصافَ على نفسه.

أي: لكلِّ واحد من المذكورين شغلٌ شاغل وخَطْبٌ هائل يكفيه في الاهتمام به؛ وأخرج الطبرانيُّ وابن مردويه والبيهقيُّ والحاكم وصحَّحه عن أمِّ المؤمنين سودة بنت زمعة قالت: قال النبيُّ ﷺ: «يُحشر الناس يوم القيامة حُفاةً عُراة غُرْلاً، قد ألجمهم العرقُ وبلغ شحومَ الآذان». قلت: يا رسول الله، واسوأتاه ينظر بعضُهم إلى بعض! قال: «شُغِل الناس عن ذلك». وتلا: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ﴾ الآية[2].

وجاء في رواية الطبرانيِّ عن سهل بن سعد أنَّه قيل له عليه الصلاة والسلام: ما شَغَلهم؟ فقال ﷺ: «نَشْرُ الصحائف، فيها مثاقيلُ الذرِّ ومثاقيلُ الخردَل»[3].

وقيل: يفرُّ منهم لعلمه أنهم لا يُغنُون عنه شيئاً. وكلام «الكشاف» يُشعِر بذلك[4]، ويأباه ما سمعتَ، وكذا ما قيل: يفرُّ منهم حذراً من مطالبتهم بالتَبِعات،

---

(١) تحرفت في (م) إلى: بالفاء.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٣١٧، والمعجم الكبير ٢٤/ ٣٤، والمستدرك ٢/ ٥١٤-٥١٥، وأورده البيهقي في شعب الإيمان ١/ ٣٢٠ بعد حديث (٣٥٩)، وهو عند البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩) بنحوه.

(٣) لم نقف عليه عن سهل بن سعد، بل أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٣٧)، وفي الكبير (كما في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٣٣) عن أم سلمة ﵂ مرفوعاً. قال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط والكبير، ورجاله رجال الصحيح، غير محمد بن أبي موسى بن عياش، وهو ثقة. اهـ. وأما حديث سهل بن سعد فأخرجه الطبراني في الأوسط (٢٩٦) والكبير (٥٨٧٦) بلفظ: قال النبي ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة مُشاة عراة غُرْلاً». وزاد في الأوسط: فقيل: يا رسول الله، ينظر الرجال إلى النساء؟ فقال: «لكل امرئٍ منهم يومئذٍ شأن يغنيه». قال الهيثمي في المجمع ١٠/ ٣٣٣: وفيها إبراهيم بن حماد بن أبي حازم ضعفه الدارقطني. وبقية رجال الكبير رجال الصحيح.

(٤) الكشاف ٤/ ٢٢٠، حيث قال فيه: يفرّ منهم لاشتغاله بما هو مدفوع إليه، ولعلمه أنهم لا يغنون عنه شيئاً.

يقول الأخ: لَمْ تُواسِني بمالك. والأبوان: قصَّرتَ في بِرِّنا. والصاحبة: أطعمتَني الحرام، وفعلتَ وصنعتَ. والبنون: لم تُعلِّمنا ولم تُرشِدنا. ويُشعر بذلك ما أخرج أبو عبيد وابن المنذر عن قتادة قال: ليس شيءٌ أشدَّ على الإنسان يومَ القيامة من أن يرى مَن يعرفه مخافةَ أن يكون يطلبه بمظلمةٍ، ثم قرأ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ﴾ الآية(١).

وذكر المرء بناءً على أنه الرجل لا الإنسان؛ ليعلم منه حالُ المرأة من باب أولى. وقيل: هو من باب التغليب. وفيه نظر.

وجَعَل القاضي ذكرَ المتعاطفات على هذا النمط من باب الترقِّي على اعتبار عطف الأب على الأمِّ سابقاً على عطفهما على الأخ، فيكون المجموع معطوفاً عليه، وكذا في صاحبته وبَنِيْه، فقال: تأخير الأحبِّ فالأحبِّ للمبالغة، كأنه قيل: يفرُّ من أخيه، بل من أبويه، بل من صاحبته وبَنِيْه(٢). ولا يخفى تكلُّفُه، مع اختلاف الناس والطباع في أمر الحبِّ، ولعلَّ عدم مراعاة تَرَقٍّ أو تَدَلٍّ لهذا الاختلاف مع الرمز إلى أنَّ الأمر يومئذٍ أبعدُ من أن يخطُر بالبال فيه ذلك.

ورُوي عن ابن عباس أنه يفرُّ قابيلُ من أخيه هابيلَ، ويفرُّ النبيُّ ﷺ من أمِّه، ويفرُّ إبراهيمُ عليه السلام من أبيه، ويفرُّ نوحٌ عليه السلام من ابنه، ويفرُّ لوطٌ عليه السلام من امرأته(٣). وفي خبرٍ رواه ابن عساكر عن الحسن نحو ذلك، وفيه: فيرون أنَّ هذه الآية ـ أعني: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ﴾ إلخ ـ نزلت فيهم(٤). وكِلَا الخبرين لا يعوَّلُ عليهما، ولا ينبغي أن يُلتفتَ إليهما كما لا يخفى.

والذي أَدِينُ اللهَ تعالى به نجاةُ أبويه ﷺ، وقد ألَّفتُ رسائلَ في ذلك رغماً لأنف عليٍّ القاري ومَن وافقه، وأعتقد أن جميع آبائه عليه الصلاة والسلام لاسيما مَن وَلَداه بلا واسطةٍ أوفرُ الناس حظًّا مما أوتي هناك من السعادة والشرف وسموِّ القَدْر:

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣١٧.
(٢) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٨/ ٣٢٥.
(٣) تفسير القرطبي ٢٢/ ٩٠، وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٣٤١ عن قتادة.
(٤) الدر المنثور ٦/ ٣١٧، وتاريخ مدينة دمشق ٦٤/ ٨.

كم من أبٍ قد سما بابنٍ ذُرَى شرفٍ كما سما برسول الله عدنانُ[1]

وقرأ ابنُ محيصنٍ وابنُ أبي عبلةَ وحميدٌ وابنُ السَّمَيْفَع: «يَعْنيه» بفتح الياء وبالعين المهملة[2]، أي: يَهمُّه، من عَنَاه الأمرُ: إذا أهمَّه، أي: أوقعه في الهمِّ، ومنه قوله ﷺ: «مِن حُسْنِ إسلام المرء تركُه ما لا يَعْنِيه»[3]، لا من عَنَاه إذا قصده، كما زعمه أبو حيان[4].

وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ بيانٌ لمآل أمر المذكورين وانقسامِهم إلى السعداء والأشقياء بعد ذكر وقوعهم في داهيةٍ دهياءَ، فـ «وجوه» مبتدأ، وسوَّغ الابتداء به كونُه في حيِّز التنويع كما مرَّ، و«مسفرة» خبره، و«يومئذ» متعلِّقٌ به. أي: مضيئةٌ متهلِّلة، من أَسْفَر الصبح: إذا أضاء. وعن ابن عباس أنَّ ذلك من قيام الليل. وعن الضحاك: من آثار الوضوء؛ فيختصُّ ذلك بهذه الأمة، أي: لأنَّ الوضوء من خواصِّهم قيل: أي: بالنسبة إلى الأمم السابقة فقط، لا مع أنبيائهم عليهم السلام.

وقيل: من طول ما اغبرَّتْ في سبيل الله تعالى.

﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ أي: مسرورةٌ بما تشاهد من النعيم المقيم والبهجة الدائمة.

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾﴾ أي: غبارٌ وكدورةٌ ﴿تَرْهَقُهَا﴾ أي: تعلوها وتغشاها ﴿قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾ أي: سوادٌ وظلمة، ولا ترى أَوْحَشَ من اجتماع الغَبرَة والسواد في الوجه.

وسوَّى الفيروزآباديُّ والجوهريُّ بين الغبرة والقترة[5]، فقيل: المراد بالقَتَرة

---

(١) البيت لابن الرومي، وهو في ديوانه ٦/ ٢٤٢٥، والشطر الأول فيه:

وكم أبٍ قد علا بابنٍ ذُرَى شرفٍ

(٢) البحر ٨/ ٤٣٠.

(٣) سلف عند تفسير الآية (١١٣) من سورة التوبة.

(٤) البحر ٨/ ٤٣٠.

(٥) الصحاح والقاموس (قتر).

الغبارُ حقيقةً، وبالغبرة ما يغشاهم من العبوس من الهمِّ. وقيل: هما على حقيقتهما، والمعنى أنَّ عليها غباراً وكدورةً فوق غبارٍ وكدورةٍ.

وقال زيد بن أسلم: الغبرةُ ما انحطَّت إلى الأرض، والقترة ما ارتفع إلى السماء(١). والمراد وصولُ الغبار إلى وجوههم من فوقٍ ومن تحتٍ. والمعوَّلُ عليه ما تقدَّم.

وقرأ ابن أبي عبلة: «قَتْرة» بسكون التاء(٢).

﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى أصحاب تلك الوجوه، وما فيه من معنى البعد للإيذان بِبُعْدِ درجتهم في سوء الحال، أي: أولئك الموصوفون بما ذُكر ﴿هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ أي: الجامعون بين الكفر والفجور، فلذلك جمع الله تعالى لهم بين الغبرة والقترة، وكأنَّ الغبرة للفجور والقترة للكفور، نعوذ بالله عز وجل من ذلك.

---

(١) البحر ٨/ ٤٣٠، وأخرجه الطبري ٢٤/ ١٢٧ عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

(٢) البحر ٨/ ٤٣٠.